زُعَمَاءُ وَفَنَّانُونَ وَأُدَبَاءُ

بقلم

كامل الشناوى

الطبعة الثانية

دار المعارف

زُعَمَاءُ وَفَنَّانُونَ وَأُدَبَاءُ

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

لقاء معهم

فى هذا الكتاب شخصيات التقيت بها ، وعشت معها . بينها شخصيات اتصلت بها . وانعقدت بينها وبينى أواصر صداقة ودراسة . وبينها شخصيات أخرى . . . كان لقائى بها من خلال آرائها . وأفكارها وكتبها ، وتاريخ حياتها .

وليس ما قدمته هنا بحثًا ، أو تحليلا . . . وإنما هو انطباعات لا تخلو من البحث والتحليل ، والكشف عن حقائق مجهولة وقد أغرانى ذلك بأن أكتب هذه الصفحات ، وأرجو أن يجد فيها القارئ ما يغريه بأن يقرأها ! . . .

كامل الشناوى

ثائر مهنته العلم
وهوايته تقطيع رقاب الملوك

« الشرق . . . الشرق خصصت جهاز دماعى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه . . . فوجدت أقتل أدوائه ، داء انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد » .

«جمال الدين الأفغانى»

هل نحن نعيش فوق الأرض ، نمشى ونقف ، نتحرك ونسكن ؟! أو أننا مثل الأرض نلف وندور ؟!

هل الزمن مسافات وأبعاد . . . أعوام وأيام . . . ماض وحاضر ومستقبل ؟! أو أنه حلقة ليس فيها بدء حتمى أو نهاية حتمية ؟ فبدايتها يمكن أن تكون نهاية ، ونهايتها يمكن أن تكون بداية !

هل يستطيع الإنسان فى هذه الحلقة المفرغة ـ التى نسميها

رمنًا ـ أن يتمرغ ويتدحرج ، فيرجع إلى الماضى ويقفز إلى المستقبل ؟

لا أدرى ، كل ما أدريه أنى تدحرجت وتمرغت بخيالى ومعلوماتى خلال حلقة الزمن ، وانتقلت من مكانى فى عام ١٩٦١ إلى مجلس العالم الثائر المفكر . . . جمال الدين الأفغانى فى عام ١٨٧٩ ليلة نفيه من القاهرة وقلت له ، وقال لى . . .

* * *

استيقظت القاهرة صباح يوم ٢٢ أغسطس من عام ١٨٧٩، ولاحديث للناس إلا عن جمال الدين الأفغانى. . الرجل الذى عاش فى مصر ثمانية أعوام ينشر أفكاره الثائرة الحادة فى الدين، والاجتماع، والسياسة. بأسلوب جديد، تنطلق منه الكلمة كالقنبلة. . . تدوى وتنفجر!

وقد وقف إلى جانب الشعب يحضه على الثورة ضد الإقطاع والاستعمار، ووقف إلى جانب الدين يدرأ عنه الخرافات، ويحميه من جهل المنتسبين إليه، المتحدثين باسمه، الذين ظفروا بألقاب كبار العلماء، ومشايخ الإسلام، ومنعوا العلوم الحديثة من أن تدخل الأزهر الشريف. . . فالطبيعة

والكيمياء كفر... والحساب والجبر زندقة، والفلسفة إفك «وسفه!» والاجتهاد فى المسائل الدينية حرام، واشتغال رجال العلم بالأمور السياسية والاجتماعية بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار!

ولكن تعاليم الأفغانى كانت تيارًا قويًّا... سارت الأمة كلها فى اتجاهه، كانت الكهرباء التى مست العقول والمشاعر فأيقظتها، وأثارتها. وشنَّت الدوائر الرسمية على الأفغانى حربًا شعواء، واستعانت عليه بعلماء الدين فاتهموه فى عقيدته، وكانوا يسمونه «ضلال الدين الأفغانى»... ويحذرون الطلبة من الاتصال به أو الاستماع إلى آرائه.

وكان خطر الأفغانى أضخم من أن يقاومه جهل الخديو، وضعف الحكومة، وسذاجة أرباب العمائم واللحى فى تلك الأيام!

وأدركت تلك الدوائر أنه لا جدوى من التغلب على الأفغانى بالتشويش والمهاترة، وإطلاق الألسنة فى شرفه وعقيدته... الشيء الوحيد الذى يقهر الأفغانى هو اختفاؤه حيًّا أو ميتًا!

وانطلقت الإشاعات فى هذا اليوم تؤكد أن الخديو توفيق سيقتل الأفغانى ، أو يسجنه ، أو ينفيه .

واتجه أبناء القاهرة إلى الحى الحسينى . . . حيث الأزهر الذى كان قلعة تحصن فيها أعداء الشيخ المفكر الثائر ، وحيث خان الخليلى الذى اتخذ الشيخ من بيوته سكنًا يجتمع فيه بتلاميذه وأنصاره .

. . . اتجهت جماهير الشعب إلى هناك لتلقى آخر نظرة على الرجل الذى علمهم كيف ينظرون . . . واقتحمت على الشيخ مجلسه، كان حوله الوجيه سليم الحجازى، وعبد السلام المويلحى، وإبراهيم المويلحى، والأديب عبد الله النديم، وشبان كثيرون عرفت منهم الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وإبراهيم اللقانى، وعلى مظهر، وسليم نقاش، وأديب إسحق، ويعقوب صنوع !

وكان الشيخ ينفث دخان سيجارته بحدة وشغف، ولا تكاد السيجارة تنتهى . . . حتى يكون تابعه « أبو تراب » قد لف سيجارة أخرى وقدمها إليه. وعلى مائدة الشيخ عدد كبير من أباريق الشاى، وكان يصب لضيوفه الشاى فى الأقداح

بنفسه... وهو يصغى لكل كلمة، ويجيب عن كل سؤال، والضجيج يملأ المقهى... ضجيج الباعة الجائلين ونداء الصبيان بالطلبات: «قهوة»، «نارجيلة»، «جوزة»، «شاى أحمر»، «شاى أخضر»، «شاى كشرى»... وقرقعة الطاولة، والمجاذيب الذين يصيحون: ياحى... ويهتفون بالصلاة على النبى! وزعيق الزبائن وهم خليط من المعممين، والمطربشين، ولابسى الجلابيب بلا جاكتات، وبينهم الشامى، والمغربى، والسودانى، والمصرى، والحجازى، واليمنى، والتركى، والعراقى، والإيرانى، وفيهم أهل التقوى وأهل الفجور... والمسابح تتشابه فى يد التقى ويد الفاجر! وبينهم شواذ... يدخنون الحشيش فى النارجيلة، ويجالسون الغلمان!

وبرغم هذا الجو كان مجلس الشيخ مهيبًا يحترمه كل من يراه... حتى الضجة كانت تحتشم إذا ما اقتربت من مجلس الشيخ... فتسمع صوته عميقًا، صافيًا، هادرًا، وهو يتحدث عن مشكلات العلم والدين والاجتماع والسياسة، بصراحة، وتدفق، كانت كلماته واضحة كلون الشاى... متدفقة كإبريق الشاى! وكانت إشارات يديه معبرة... تكاد تسمع فيها رنين الكلمة! وهنا... أدركت لماذا وصفوا جمال الدين الأفغانى

بأنه كان يصب الشاى بيد، وينثر الحكمة باليد الأخرى!

وكان على مظهر شابًا وديعًا، يبدو من قسمات وجهه أن فى عروقه المصرية دمًا تركيًا.. عيناه زرقاوان، وبشرته بيضاء، وقد امتد على فمه شارب جميل. حذاؤه اللامع، وطربوشه الملتوى المكتوى المائل إلى اليمين فوق رأسه، وملابسه الأنيقة، تدل على أنه من أصحاب الثراء الذين لم يمارسوا العرق!

وكان يتابع حديث الشيخ برهبة وإرهاب. يصغى بأذنيه، يصغى بعينيه، يصغى بأطراف رأسه. لم يشترك فى الأحاديث التى دارت بكلمة أو إشارة، أو همهمة.

وكان طيلة الجلسة يطوق صدره بكلتا يديه، كأنما يخشى أن يسقط من صدره شيء وعاه من الشيخ وهو يتحدث!!

واستأذن الشيخ فى الانصراف إلى مسجد الحسين وقال إنه عائد بعد ساعة.

ومشى الشيخ ومن ورائه محمد عبده، وعبدالله النديم، وسليم الحجازى، وعبدالسلام المويلحى، وإبراهيم المويلحى، وتابعه الخاص أبو تراب.

ووقف كل من فى المقهى إجلالا للشيخ... بعضهم اتجه

إليه، وصافحه وقبل يده، أو حاول أن يقبلها... وبعضهم وقف مكانه وفى يده مسبحة أو فم نارجيلة، وكان أبو تراب خلال ذلك يبتسم للناس فى نشوة، مؤكداً لهم بغمزات عينيه وتحريك أصابعه، أن الشيخ سيعود بعدما يؤدى الصلاة...

وانتهزت هذه الفرصة... وخلوت بعلى مظهر وسألته: لماذا لم يفتح فمه بكلمة عندما كان جالسًا مع الشيخ؟! فقال: خشيت أن تفوتنى منه فكرة أو تعبيرة أو تكشيرة أو ابتسامة. إن مولانا الأفغانى يعطينا الحكمة فى كل حركاته، وسكناته!!

قلت له: ولماذا لم تصحبه إلى المسجد؟

فقال: اعتقدت أن عنده ما يريد أن يخص به الذين دعاهم للذهاب معه.

- ومن هؤلاء الذين معه؟

قال: عبد السلام المويلحى وجيه كبير، وإبراهيم المويلحى أعظم كتاب هذا العصر...

قلت: ومن يكون عبد الله النديم؟

قال: هذا مفكر عصامى علم نفسه بنفسه، وتطور من

«أدباتى» إلى أديب كبير ينظم الشعر والزجل، ويخطب، وله تأثير شديد فى تغيير أفكار الجماهير. ولا أحد يضارعه فى الكتابة باللغة العامية... إلا يعقوب بن صنوع «أبونضارة»، وهو يهودى.

قلت : النديم يهودى !!

قال : النديم مسلم... اليهودى هو أبو نضارة يعقوب بن صنوع.

قلت : وما علاقة الأفغانى المسلم بهذا اليهودى

قال : إن مولانا يؤمن بتضافر العقليات الشرقية. . سواء كانت مسلمة أو مسيحية أو يهودية... للتحرر من الاستعمار الأوربى، وطغيان الملوك على اختلاف أسمائهم... سلطان أو خديو أو شاه!

ثم مدّ يده مشيراً إلى أحد الشبان وقال: أتعرف من هذا؟

قلت : رأيته فى مجلس الشيخ.

قال : هذا شاب لبنانى مسيحى اسمه أديب إسحاق عرف مولانا مواهبه... فأدناه منه، وعاونه على إصدار جريدة فى

القاهرة اسمها «مصر» وكان السيد جمال الدين الأفغانى يشرف على سياستها ويكتب فيها مقالات.. يوقعها باسم مستعار... هو «مظهر بن وضاح»، ثم أرسله إلى الإسكندرية... حيث أنشأ جريدة يومية هى «التجارة» وأغلقها رياض باشا ناظر النظار!

قلت: وأبو نضارة هذا... هل هو صحفى؟

قال: إن يعقوب بن صنوع شاعر، وكاتب، وزجال، وابن نكتة، ويتقن عدة لغات، ويعرف التشخيص، ويفكر أفكاراً هزلية.. أما أبو نضارة... فهو اسم المجلة التى عاونه مولانا على إصدارها فى عهد الخديو إسماعيل، وكان مولانا يرى وجوب إنشاء مجلة تكتب للفلاحين بلغتهم، وقلنا له: وما الفائدة من ذلك ما دام الفلاح لا يعرف القراءة بلغته الفصحى؟

فقال: إن الفلاح يسمع ما فى الجريدة... فإذا سمع لغة فصيحة لم يفهم بسهولة، وإذا سمع لغته الدارجة فهمها بسرعة... والأمة فى حاجة إلى أن تفهم بسرعة!

قلت: ومن يكون سليم الحجازى؟

فقال : سليم باشا الحجازى رجل معروف، عندما زارنا الأفغانى لأول مرة . . . كان الخديو إسماعيل قد نكب البلاد بالديون التى أخذها من الدول الأوربية، وبلغ مجموعها ٩٥ مليون جنيه . . . أنفقها على نزواته ومظاهر أبهته. وتدخلت الدول الدائنة فى شئوننا عقب وصول بعثة «كيف» إلى مصر عام ١٨٧٥، وأنشئت مصلحة للرقابة على مالية مصر، وكانت هذه الرقابة تحكمنا وتتحكم فينا، وتستولى على أقواتنا. وتوجه سياستنا واقتصادياتنا.

وثار السيد جمال الدين الأفغانى على الحال التى آلت إليها مصر . وكان يقول : إنى لأعجب منك أيها الفلاح . . . تشق الأرض بفأسك باحثًا عن رزقك . . . لماذا لا تشق بهذه الفأس صدور ظالميك ؟!

وكان مولانا يحض على الخلاص من إسماعيل، ويصف حكمه بأنه هوان للشعب، وقهر، وظلم، وسخرة، وجسر يعبر فوقه الغزاة من المستعمرين . . . ليلووا رقابنا، ويحنوا ظهورنا، ويستنزفوا منا الدم والعرق والكرامة.

وأخذ سليم الحجازى يستمع إلى السيد الأفغانى فى تأثر،

واستجابة وبغتة... وقف منتفضًا، وهو يقول : كفى يا مولانا... فإنك إذا لم تسكت... فسوف أذهب الآن وأقتل الخديو إسماعيل.

قال الأفغانى : وما الذى يمنعك من قتله؟

قال سليم باشا : أخشى على ابنى فؤاد... أخشى أن يثأروا منه.

فقال الأفغانى : إذا كان هذا هو المانع... فاقتل ابنك فؤاد... ثم اقتل الخديو إسماعيل؟

ـ وهل كان الأفغانى يكره إسماعيل إلى هذا الحد؟

قال على مظهر : كان يكره الملوك إلى أقصى حد، لأنه يحب الشعب والحق والعدل.

وها هو ذا مولانا قد عاد ومعه تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده... فاجتهد أن تخلو بالشيخ عبده وتسأله : كيف ذهب ليقتل بنفسه الخديو إسماعيل؟

ـ الشيخ عبده يقتل؟!

قال : اسأله... وسوف يجيبك!

وساد أرجاء المقهى جو من الاهتمام.

وقف الجالسون وأغلقت علب النرد « الطاولة » وارتفعت أصوات الكراسى والجرائد، وهى تبعد عن الزبائن لتتيح لهم فرصة استقبال جمال الدين وتحيته بلمسات الأيدى، أو بنظرات العيون.

وأقبل الشيخ يحف به محمد عبده، وأبو تراب، والعلم. والجلال، والمهابة... وهو يحاول أن يتوارى فلا يستطيع... وقار يريد أن يخف! وتواضع أشد سطوة من الكبرياء!

كان الذكاء والسحر والتمرد يشع من عينيه الواسعتين ويعلو العينين حاجبان أشبه بخنجرين من شعر ناعم كثيف، يفصل بينهما أنف أشم، وعلى جانبى الوجه خدان بارزان، وقد غطى الشعر أذنيه، ووقف شاربه مؤدبًا عند فمه بدت شفتأه المليئتان واضحتين تنطلق منهما الكلمة، والضحكة، والآهة الساخرة، والآهة الثائرة... ولم أر ذقنه فقد اختبأ فى لحية مستديرة جميلة

الجبهة عريضة والرأس كبير، ولون البشرة قمحى، أما قوامه فقد حار بين الطول والقصر، والنحول والبدانة، ليس

طويلا ولا قصيراً، ليس ناحلا ولا بدينًا، ولكنه على الحياد!

واتجه الشيخ إلى بيته القريب من المقهى، وبقى تلاميذه فى انتظار عودته.

واقتربت من الشيخ محمد عبده وسألته عما تردده القاهرة من إشاعات عن الإمام الأفغانى، فقال: كل شيء جائز!

- هل يعتقلونه؟ هل يقتلونه؟ هل ينفونه؟

فقال محمد عبده: ربما... فهذا كله يحتمل أن يكون... ولكن الذى يستحيل أن يكون... هو أن يعتقلوا أفكار جمال الدين، أو يقتلوا أمبادئه، أو ينفوا تعاليمه.

- وهل اقترف الأفغانى جريمة؟

وقال محمد عبده: المجرمون يريدون أن يعاقبوا الأفغانى على الجرائم التى اقترفوها هم...

- لماذا إذن يحاربه كبار العلماء؟

وهنا قفز شخص لم أعرفه، وقال: لأنهم ليسوا كباراً، وليسوا بعلماء!

وسألت الشيخ محمد عبده: هل أستطيع أن أظفر بتوجيه

بضعة أسئلة إلى السيد جمال الدين الأفغانى فى مكان آخر غير هذا المقهى؟

وقال الشيخ محمد عبده: إنه لم يتعود الجلوس هنا إلا منذ أيام قليلة، فهو يعقد اجتماعاته فى بيته. ومقهاه المختار هو قهوة البوستة بالعتبة الخضراء.

* * *

وفى هذه اللحظة وصل السيد جمال الدين الأفغانى وجلس بين تلاميذه وأصدقائه، ودنوت منه وسألته فى غباء: من أنت؟

فضحك، وقال: أنا جمال الدين الحسنى الأفغانى.

ـ ما هو تاريخ مولدك؟.

قال: فى عام ١٢٥٤ هجرية (١٨٣٨ بالتاريخ الميلادى).

ـ هل تنحدر من سلالة فارسية؟

قال: لقد تمت ولادتى فى الأفغان، وأسرتى عربية مسلمه تنتمى إلى الحسن بن على بن أبى طالب.

ـ وما هو سر اهتمامك ببلاد أخرى غير الأفغان؟

قال: لقد نظرت إلى الشرق وأهله، واستوقفتنى الأفغان،

وهى أول أرض مس جسمى ترابها، ثم الهند... وفيها تثقف عقلى... فإيران بحكم الجيران والروابط.. فجزيرة العرب من حجاز ويمن ونجد، والعراق، والشام، والأندلس.

الشرق... الشرق... وقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه، فوجدت أقتل أدوائه... داء انقسام أهله، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر المحدق بهم.

ـ هل مارست السياسة فى بلد آخر غير مصر؟.

قال: مارستها فى بلدى، ووصلت فيها إلى مركز رسمى يماثل منصب الوزير، ولكن المناصب وسيلة وليست غاية. وقد حاولت أن أنقذ الأفغان من تدخل الدول الأجنبية، فلما لم أستطع... توجهت إلى فارس، وهناك اختلفت مع الشاه... لأنه يريد أن يقيم عرشه على جماجم الشعب... كما هو الحال هنا... وفى كل بلد يحكمه ملك.

- الا يمكن أن يكون الملك عادلا؟

قال: يمكن أن يكون عادلا... إذا أصبح تاجه بلا رأس

او أصبح رأسه بلا تاج ! !

كم سنة ألمت فى مصر؟

قال : أكثر من ثمانى سنوات، وكنت قد زرتها قبل ذلك، وألمت فيها شهرين، ثم عدت إليها فى أول المحرم عام ١٢٨٨ (مارس ١٨٧١)، وظللت فيها إلى اليوم. . . يوم ٢٣ أغسطس من عام ١٨٨٩.

ـ وما الذى جذبك إلى مصر؟

قال : ما جذبنى إلى غيرها من بلاد تعانى شعوبها الظلم والعبودية مثل فارس، والهند، والحجاز، وتركيا، . . . وقد حاولت فى تلك البلاد أن أغرس شجرة الإصلاح الدينى والتحرر الاجتماعى، والسياسى، ولكنى لم أجد التربة والجو لنمو هذه الشجرة إلا هنا. . . فى مصر.

ـ وهل نمت الشجرة؟

قال : ستنمو حتماً. . .

ـ ماهو الإصلاح الدينى الذى تنشده؟

قال : إعادة الصداقة بين العلم والدين، ولكى نصلح

الدين... يجب أن نعود إلى الأصل وهو القرآن والصحيح من الأحاديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه، وأن نفتح باب الاجتهاد، وأن نقضى على التفرقة بين أهل السنة... وأهل الشيعة، فهذه التفرقة أحدثتها مطامع الملوك.

إن الأديان الثلاثة أساسها واحد وقد وسع شقة الخلاف بينها تجار رؤساء الأديان بها.

- أظن أن هؤلاء التجار هم الذين يرمونك بالإلحاد.

قال: والجهلاء والحكام الطغاة، والدول الأوربية الطامعة فى غفلة الشرق. إننى شديد الإيمان بدينى، أومن بعقلى، وليس للعقل نهاية. وأومن بمشاعرى إيمان تصوف ينتهى بى إلى وحدة الوجود.

- هل تنادى بحرية الرأى حتى «فى المناقشات الدينية؟».

قال: هذا طبيعى... وفى بلادكم شبلى شميل يدعو إلى مذهب داروين، ويعبر عن آرائه الملحدة... وإنى أحمل على هذه الآراء. وأستهجنها، ولكنى أقدر صبره على البحث وشجاعته فى الجهر بما يعتقده.. ولو كان فيه تحد لعقائد الناس.

- هل يسمح الإسلام باعتناق المذاهب الاجتماعية المدنية، كالاشتراكية مثلا.

قال: الاشتراكية كانت فى الإسلام ملتقية مع الدين، ملتصقة به وباعثها حب الخير. أما الاشتراكية فى الغرب... فقد بعث عليها جور الحكام.

- هل ترى المساواة بين الرجل والمرأة؟

قال: المرأة فى تكوينها العقلى تساوى الرجل، والتفاوت بينهما... إنما جاء من إطلاق سراح الرجل وتقييد المرأة بالبيت، ولكل وظيفته. وليس ثمة ما يمنع من أن تعمل المرأة خارج البيت إذا اضطرتها الظروف إلى ذلك، ولا مانع من السفور، إذا لم يتخذ مطية للفجور؟

- لماذا لم تتزوج؟

قال: إن الزواج يتم به بقاء النوع واستكمال حكمة العمران. ويخطئ من يظن مع أبى العلاء المعرى... أنه جناية، أما أنا... فإن معرفتى بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معانى العدل، وعجزى عن القيام به، دفعانى إلى أن أتقى عدم العدل ببقائى عزبًا...

ـ ماهو الحكم المثالى للشعب ؟

قال : أن يحكم نفسه بنفسه، ولن يأتى دلك إلا إذا تعلم وعرف حقوقه وواجباته وحرياته ومارسها وحرص عليها. وهذا هو سر الصراع القائم بيى وبين الحكام.

ـ أليس الخديو توفيق صديقك ؟

قال : كان كذلك قبل أن يتولى منصب الخديو. كان وليًا للعهد، وكنت ألتقى به فى المحفل الماسونى. ووجدت من تعلقه بى ما دفعنى إلى أن أشرح له المبادئ السليمة. وقد اقتنع بها... وأبدى حرصه عليها... ولكنه لم يكد يتولى منصب الخديو حتى أخذ يتنكر لهذه المبادئ، واستدعانى إليه وقال لى : إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح لأن يلقى عليه ما تقوله من الدروس والأقوال المهيجة.

وقد نصحته بالاعتماد على الشعب إذا أراد تثبيت حكمه. وخرجت من عنده لأستأنف الدعوة للمبادئ الإصلاحية بين الناس.

ـ هل خدعك رياض باشا ؟

فضحك فى سخرية !

ـ هل خدعك محمود سامى البارودى ؟

فأطرق برأسه فى حزن وقال :

ـ لقد هالنى موقفه... فقد كان أشرف من عرفت من المسلمين.

ـ ولماذا اختلفت مع المحفل الماسونى ؟

قال : لقد رأيت أن أنضم إلى المحفل الماسونى الأسكوتلاندى، لأنه يضم طائفة من المصريين والأجانب. وظننت أنى أستطيع أن أنقل أفكارى إليهم... ولكن ظنى خاب.

ثم قال : أول ما شاقنى فى « بناية الأحرار » عنوان كبير خطير هو : « حرية. مساواة. إخاء »... وأن غرضها منفعة الإنسان... والسعى وراء دك صروح الظلم، وتشييد معالم العدل المطلق... وقد كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة، عجيبة ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أعمدة المحافل الماسونية...

واستطرد يقول : إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بان حر، وإذا كانت آلات البناء التى فى يدها لا

تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة، وإخاء، ومساواة. . . فلا حملت أيدى الأحرار مطرقة، ولا قامت لبنايتهم قائمة!

* * *

وكانت الساعة قد أشرفت على الثانية صباحًا، ورأيت أن أريح الشيخ منى. . . على أن يسمح لى بأن أتعبه مرة أخرى. فدعانى إلى مقابلته فى داره غداً. . .

ولم أكد أخرج من المقهى. . . حتى وجدت حىّ الحسين كله ساهرًا بمقاهيه ودكاكينه، بالعربات المضاءة بالفوانيس تحمل الفاكهة والحلوى وشراب العرقسوس والخروب والتمر هندى، والليمون والشاى، والقهوة. . . بالدراويش يروحون ويجيئون وفى أيديهم مجامر البخور. . . بصفوف كبيرة من الحمير، والعربات الكارو، فهذه هى الوسائل الوحيدة لنقل الناس من مكان إلى مكان.

وضاع من رأسى كل أثر للإشعاعات التى ملأت الأسماع عن التنكيل بجمال الدين.

وذهبت إلى بيتى. وحاولت أن أنام، ولكن صوت الشيخ،

وصورته وأفكاره كانت تغريني بالسهر... كنت أحس أن سهري عليها أحلى من النوم!

* * *

وفي الصباح استيقظت مذعورًا على أصوات عربية تنطلق في الشارع... من الناس الذين يهرولون في غير قصد ولا هدى من الأبواب والنوافذ... من البيوت والدكاكين والمقاهي... كل الأصوات تصيح: أين جمال الدين الأفغاني؟ اعتقلوه... نفوه... قتلوه.

واتجهت إلى الحي الحسيني، وكان الطريق المؤدي إلى الحي، والناس الذين امتلأ بهم الحي أشبه بخلية نحل تطن بأسئلة ليس لها جواب!

وسهرت مع الناس في المقهى إلى اليوم التالي... وإلى اليوم الثالث. وفي هذا اليوم، بدأ بعض أصدقاء جمال الدين الأفغاني يظهرون في المقهى، ويتحدثون عن قرار الحكومة بطرد جمال الدين الأفغاني من مصر... لقد طردوا جسده... ولم يطردوا أفكاره، لقد طردوا شخصه... ولم يطردوا شخصيته... فما زال الشيخ جالسًا... لا في مكانه من

المقهى أو البيت ـ ولكن... فى كل مكان... وما زال اسمه يدوى اليوم وغدًا، وسيظل كذلك أبداً...

وأقبل الشيخ محمد عبده وحاصره الناس يسألونه : ماذا جرى ؟.

وأخذ محمد عبده يروى ما كان من طرد أستاذه... وذكر أن الحكومة قبضت على السيد جمال الدين الأفغانى صباح ذلك اليوم المشئوم... يوم ٥ أغسطس، وقاده جنودها بالقوة إلى محطة سكة الحديد، وأركبوه بالعنف القطار الذاهب إلى السويس، ولقيه قنصل إيران وبعض المصريين الأحرار... فعرضوا عليه مائة دينار ولكنه لم يقبلها.

قال لهم : أنتم أحوج إلى هذا المال.

وقال له أحدهم : أنت فى حاجة إلى المال أكثر منا. فقال : الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب!

ومضى محمد عبده فقال : إن الانزعاج بنفى جمال الدين الأفغانى كان عامًّا، ولكن الخديو أبدى سروره بما فعل، وتحدث فى محضر جماعته من المشايخ على مائدة الإفطار فى رمضان... فأظهر الطرب للخديو من كان لا يعرف لنفسه

قيمة فى العلم والفضل فى مجلس جمال الدين الأفغانى.

وقد حتمت الحكومة على الصحف نشر الأمر الصادر بنفى جمال الدين... بما فى هذا البيان من تقريع شديد وتجريح جارح للرجل... فنشره البعض ورفضت إحدى الجرائد نشره... فصدرت التعليمات بتعطيلها!!!

واستطرد محمد عبده يقول: إن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة... ولا الألسن إلا جرأة... ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نموًّا وظهورًا. ولم تكن الحكومة كريمة فى معاملة الأفغانى... فرمته بالزندقة، وسمته «ضلال الدين» الأفغانى الأفاق! وقالت فى البيان الذى أصدرته إنها: «أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية، بأمر ديوان الداخلية... لإزالة هذا الفساد من البلاد... عبرة للمعتبرين، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين البادى من أفعالهم الظاهرة أنهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة...!

هكذا... كانت عقلية الحكام، وهكذا كان أسلوبهم... كلمات تافهة مسجوعة.

وكان من أثر الهزة التى أحدثها جمال الدين الأفغانى فى

مصر أنه حرر العقول من الجهل والأوهام، ووجهها إلى التفكير والتأمل وفتح فيها نوافذ تطل على الحضارة الإنسانية والثقافة العالمية، وأقنعها بضرورة التعرف على مصدر قوة أوربا الطامعة فى الشرق... والعمل على أن نكون أقوياء لنواجه القوة بالقوة. ولم يقف عند هذا... بل أثر فى أسلوب الكتابة، فكان ينادى بأننا لسنا فى حاجة إلى الكلمات اللغوية... ولكننا فى حاجة إلى الكلمة التى «تنقر حبة القلب».

وقبل إقامة الأفغانى فى مصر... كان الأدباء يحصرون مواهبهم فى مدح الكبير والتغنى بمآثر الوزير، فإذا خرجوا من هذا النطاق نظموا الشعر الماجن. وتباروا فى تبادل الهجاء بقصائد أو مقطوعات نثرية تعتمد على التلاعب باللفظ والإغراق فى المجون... ليضحكوا أرباب الجاه ويتلقوا منهم الهدايا!

وجاء الأفغانى... فجعل للأدب هدفًا، وحوله من تسلية وترف إلى تعبير عن آمال الشعب وانفعال بمآسيه، وجعل من الكلمة سلاحًا ونشيداً، وأغنية.

وكان الأديب المؤرخ اللبنانى سليم العنجورى يقيم فى مصر، وكان من أصدقاء الشيخ وقد وصفه فقال:

كان جمال الدين الأفغانى يقطع بياض نهاره فى داره، حتى إذا جن الظلام... خرج متوكئًا على عصاه إلى مقهى قرب الأزبكية وجلس فى صدر جماعة تلتف حوله على هيئة نصف دائرة، ينتظم فيها اللغوى، والشاعر، والمنطق، والطبيب، والكيماوى، والتاريخى، والجغرافى، والمهندس، والطبيعى، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه... فيحل عقد أشكالها بلسان عربى مبين، لا يتلعثم ولا يتردد، بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال. حتى إذا اشتعل رأس الليل شيبًا قفل إلى داره بعد أن ينقد صاحب المقهى كل ماله فى ذمة ذلك الجمع الأنيق.

وكانت الحكومة قد خصصت للأفغانى عشرة جنيهات شهرية، ثم قطعتها عنه، فكان بعض الأعيان يمدونه بالمال وهم يتوسلون إليه أن يقبله منهم... فكان يأخذ فقط القليل الذى يكفيه.

ويقول العنجورى: إن جمال الدين الأفغانى أخذ يقرب

إليه العوام ويقول لهم : إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون نير الفاتحين، وتسومكم حكوماتكم الحيف والجور، وتستنزف عرق جباهكم بالعصا والمقرعة، والسوط، وأنتم صامتون. . .

انظروا أهرام مصر، وهياكل ممفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوه وحصون دمياط، فهى شاهدة بعظمة آبائكم وعزة أجدادكم، هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم. عيشوا كباقى الأمم أحراراً. . .

ويرى العنجورى أنه منذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية.

وقد سجل جمال الدين الأفغانى فى خاطراته التى جمعها المخزومى باشا. أنه ترك المحفل الماسونى الأسكوتلاندى وألف محفلا آخر تابعًا للشرق، وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين، وكان جمال الدين فى هذا المحفل مطلق الحرية. نظم فيه لجانًا للأعمال المختلفة. . . بعضها للحقانية، وأخرى للمالية وثالثة للأشغال،

ورابعة للجهادية، إلخ... وكل لجنة أو كل شعبة - كما كان يسميها - تدرس الشئون المختصة بها وتعرف وجوه إصلاحها وما يقع من الظلم فيها، ثم تتصل بالوزير المسئول وتبلغه رغباتها...

بهذا التفكير المنتظم، وهذه العقلية النيرة، والروح الثائرة، استطاع جمال الدين الأفغانى أن يدخل الكهرباء فى عقول الشعب ومشاعره، وكانت هذه المشاعر قبل ذلك ظلمات جامدة تتعرض بين حين وآخر لشمعة أو ذبالة مصباح... فأشاع فيها الهزة، والحرارة، والضوء!

* * *

ونتابع جمال الدين الأفغانى بعدما رحل من مصر، فنراه فى الهند يقيم فى «حيدر أباد»، وكان قد أحدث فيها هزة فكرية دينية كبيرة، فلما قامت الثورة العرابية... نقلته السلطات البريطانية فى الهند إلى «كلكتا»، ووضعته تحت الحراسة، وعندما انتهت ثورة عرابى ودخل الإنجليز مصر - سمحت له السلطات البريطانية بمغادرة الهند إلى أى بلد غير شرقى!

وقد ذكر مستر بلنت فى مذكراته أن جمال الدين غادر الهند إلى أمريكا... ولكن العالم المحقق الأستاذ أحمد أمين استبعد صحة هذه الواقعة.

ولقد أقام جمال الدين فى لندن عام ١٨٨٣، وأرادت السلطات البريطانية أن تكسب صداقته... فعرضت عليه عرش السودان... فسخر من هذا العرض وقال: إن عرش السودان للسودان فليس لكم أن تعطوه أحداً!

ثم ذهب إلى فرنسا، ومن هناك اتصل فى مصر بتلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، واتفقا على إصدار جريدة «العروة الوثقى» من باريس، وتعد مجموعة هذه الجريدة سجلا حافلا بآراء جمال الدين الأفغانى السياسية والدينية والاجتماعية، وكانت سوط عذاب يلهب ظهور الدول الاستعمارية، ورعشة تمشت فى أذهان الشعوب الشرقية فهبت لتدافع عن كرامتها وحريتها ودينها، وكانت مقالاتها تحمل أفكار الأفغانى، وأسلوب محمد عبده.

وفى باريس... اشتبك الأفغانى فى جدل علمى دينى مع الفيلسوف «رينان»، وقد لفت إليه أنظار المفكرين الإنجليز

والأمريكان والمستشرقين... فكتبوا عنه وألقوا محاضرات عن آرائه وتعاليمه وشخصيته ولم تستطع جريدة العروة الوثق أن تستمر فى الصدور.

* * *

وذهب محمد عبده إلى بيروت، وكان شاه إيران قد اتصل بالأفغانى، وأقنعه بالعودة إلى إيران... فعاد إليها، ثم ما لبث أن تركها وسافر إلى روسيا وأقام بها ثلاث سنوات. وقد سأله القيصر عن سر خلافه مع الشاه فقال: لأنى أرى أن يكون الحكم شورى، أما هو... فيرى غير ذلك!!

قال القيصر: الحق مع الشاه.. إذ كيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟

قال جمال الدين: أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه، من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص.

وغضب القيصر ونهض واقفًا إيذانًا بانتهاء المقابلة!

* * *

وكان قد سافر إلى ألمانيا فى طريقه إلى باريس، وتقابل

مع ناصر الدين شاه إيران، واعتذر له الشاه، ووعده بتنفيذ تعاليمه الإصلاحية وعرض عليه العودة إلى طهران.

ولما وصل إلى طهران، لقى حفاوة كبيرة من الشعب ورعاية من الشاه، ولكن الصدر الأعظم نبه الشاه إلى خطورة ما يدعو إليه جمال الدين، وبغتة... أمر الشاه بالقبض على الأفغانى، فأسرع الأفغانى واحتمى فى مقام سيدنا «عبدالعظيم»، وهو مقام يقدسه أهل فارس... ولكن الشاه أرسل إليه خمسمائة جندى مسلحين، وانتزعوه من المقام المقدس.

ويصف جمال الدين ذلك فيقول: «سحبونى على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة، ثم حملنى زبانية الشاه - وأنا مريض - على دابة مسلسلا بين الثلوج والرياح»...

وبعد ذلك سافر إلى لندن، واشترك فى إصدار مجلة شهرية اسمها «ضياء الخافقين»، وكانت تصدر باللغتين... الإنجليزية والعربية، وقد صب فيها جام غضبه على الشاه.

وطلب منه سفير فارس أن يكف عن الطعن فى الشاه، وعرض عليه أموالا طائلة... وقد احتقر جمال الدين الأفغانى

الطلب والعرض وقال للسفير: لن أسكت عن الشاه حتى يلقى ربه!

وتوسل الشاه إلى السلطان عبدالحميد أن يتوسط لدى جمال الدين الأفغانى ليصلح بينهما، فدعاه عبدالحميد إلى زيارة الآستانة، ولما استقبله مندوبو السلطان فى الميناء سألوه عن حقائب ملابسه وصناديق كتبه... فقال: ملابسى على بدنى وكتبى فى صدرى! ولم يكن معه حقيبة أو صندوق!

واستقبله عبد الحميد أحسن استقبال، وأمر بصرف مكافأة شهرية له قدرها ٧٥ ليرة، وأنزله بيتًا أنيقًا يقع قرب قصر يلدز، وخصص له عربة وخدمًا وجواسيس!! وعرض عليه السلطان عبدالحميد منصب مشيخة الإسلام... ولكنه رفض المنصب إلا إذا قبل السلطان تنفيذ آرائه الإصلاحية.

واشتبك فى معارك مع رجال الدين الجامدين فى تركيا ومع «أبوالهدى» الصياد جلاد الفكر، وجاسوس السلطان المعروف.

وساءت العلاقة بينه وبين السلطان... أخذوا عليه أن السلطان عندما طلب منه أن يترك مهاجمة الشاه... أجابه

قائلا : من أجلك قد عفوت عن الشاه...

وقالوا : كيف يعفو أحد الرعية عن ملك !

وأخذوا عليه أنه كان فى حضرة السلطان وظل يلعب بحبات مسبحته، وبعدما خرج نبهه رئيس الديوان إلى أن اللعب بحبات المسبحة لا يجوز فى حضرة السلطان... فقال جمال الدين إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء ؟!

وظل جمال الدين الأفغانى يعانى الضيق والكبت والعزلة عن الناس طيلة إقامته فى الآستانة. فقد تحول بيته إلى معتقل، وأصبح رواد مجلسه جواسيس... وفى هذه الفترة كان ناصر الدين يزور أوربا، وقابله أحد تلامذة جمال الدين وطعنه بخنجر فى صدره فأرداه قتيلا، وقال وهو يطعنه : «خذها من يد جمال الدين» !!

وبلغ الخبر السلطان عبدالحميد، فضيق الخناق على تحركات جمال الدين الأفغانى، ومنعه من مغادرة تركيا. وقد وصف جمال الدين الأفغانى إقامته فى الآستانة... فقال إن البيئة هناك أثرت فى عقله وفكره وقلبه، وإن ذهنه كان

ممسوحًا كأن لم يكن فيه شيء من العلوم والآراء!

وبقى جمال الدين الأفغانى فى تركيا حبيسًا - كما قيل - فى قفص من ذهب. كان يتردد عليه بعض زائرى الآستانة من أحرار المسلمين مثل الأمير شكيب أرسلان وعبدالله النديم، وكان النديم يغار من حب جمال الدين الأفغانى لمحمد عبده، ولما غضب جمال الدين الأفغانى على الشيخ محمد عبده، لأنه ينشر مقالاته بدون توقيع، أرسل إليه يلومه على ذلك ويقول: «لماذا تكتب ولا تمضى، ولماذا تعقد الألغاز؟ أمامك الموت ولا ينجيك الخوف... فكن فيلسوفًا يرى العالم ألعوبة، ولا تكن صبيًا هلوعًا»!.

وانتهز عبد الله النديم هذه الفرصة... وقال لجمال الدين الأفغانى إنك لا تزال تصف الشيخ عبده بأنه صديقك، ومازلت تسرف فى الثناء عليه... كأنه لم يكن لك صديق غيره... فضحك الأفغانى وقال له: وأنت ياعبدالله صديق... ولكن الفرق بينكما أنه كان صديق فى الضراء، وأنت صديق فى السراء!!

وعندما تلق الشيخ عبده رسالة جمال الدين... تملكه الحزن



وكرر حكمته المأثورة : هذا رجل يهدم بالحدة ما يبنيه بالفطنة.

* * *

ومرض الأفغانى فى الآستانة وأرسل إليه عبدالحميد طبيبه الخاص فغمس لسانه فى ميكروب فأصيب بمرض عضال ومات فى عام ١٨٩٧، وأمر السلطان بدفنه على عجل...

مات الأفغانى شخصًا، ليحيا أفكاراً، ومشاعر، وثورات، ويعيش فى كل عقل وكل قلب وكل زمن!.



شاعر الثورة

رأت عيناه النور فى أرض مصر حوالى عام ١٨٤٠، وكانت بيئته وأسرته والظروف السياسية والاجتماعية كفيلة بأن تجعل منه أداة تعذب بها نفوسنا التى قهرها الطغاة والظالمون والغزاة الذين اغتصبوا حقنا فى أن نعيش أحرارًا... فهذا الطفل الصغير، الناعم البشرة، الأبيض، الوسيم الملامح، يجرى فى عروقه دم تركى ودم شركسى. واللغة العربية غريبة فى بيته واللهجة المصرية لايكاد يسمعها، فالخادم من الحبشة، ومربيته شركسية، والبواب أرناءوطى!

وقد دخل المدرسة العسكرية ليكون ضابطًا فى الجيش الذى استأثر الشراكسة والأتراك بقيادته وأعلى مناصبه... وربما راوده الأمل فى أن يصبح ذات يوم أحد أعوان الخديو فى الجيش... ولم لا؟ إنه مثل هؤلاء الضباط الأتراك والشراكسة أناقة ورشاقة وانتسابًا على نحو... إلى الترك والشراكسة...

ولقد صار ضابطًا كبيرًا ووزيرًا للحربية ورئيسًا للوزارة،

ولكنه لم يكن ـ كما ظن الحاكمون ـ عدوًّا للشعب، وإنما كان واحدًا من الشعب، فإن ملامحه فقط... كانت تركية شركسية، أما روحه فإنها مصرية عربية...

كان لسانه يرطن أحيانًا بلغة الأتراك، وينطق دائمًا باللغة العربية شعرًا ونثرًا...

وكانت كل الملابسات التي أحاطت به توحى بأنه لن يكون مصريًّا بتفكيره وتعبيره، فقد عرفنا أن الجو العائلى الذى تنفس فيه كان جوًّا غير مصرى...

ولم يكن الجو العام خيرًا من ذلك الجو الخاص... فقد كانت مصر ترزح فى قيود سطوات أجنبية متعددة... سطوة المماليك، ثم الغزو الفرنسى بقيادة نابليون... ثم سيطرة الدولة العثمانية وحكم محمد على وأسرته من بعده... وامتلاكهم مصر... أرضًا وشعبًا وثروة وعرشًا، وعندما كان محمد على واليًا تمت ولادة محمود سامى البارودى... وقد عاصر البارودى عباسًا الأول والخديو إسماعيل والخديو توفيقًا، ومات فى عام ١٩٠٤، فى عصر عباس الثانى.

ولكن البارودى ـ الذى تآمرت ظروفه الخاصة وظروفه

العامة على تكوينه فى صورة خائن للشعب ـ وقف إلى جانب الشعب وكان بطلا، وخاض مع الزعيم العظيم أحمد عرابى معركة الحرية والشرف والحياة ضد الخديو توفيق أو ضد الإنجليز الذين استنجد بهم الخديو الخائن وغزوا بلادنا عام ١٨٨٢.

وقد دفع ثورته وبطولته عذابًا شديدًا فى المنفى سبعة عشر عامًا، فعانى فى «سرنديب» المرض والحنين إلى وطنه وأبنائه، وبكى شريكة حياته التى ماتت وهو بعيد عنها.

ولما أصيب بالعمى. سمحت الحكومة البريطانية بعودته إلى بلاده... فظل حوالى خمس سنوات قعيد بيته، وفى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ لفظ آخر أنفاسه...

وإذا كانت الظروف السياسية والاجتماعية لا تسمح لمثل البارودى أن يكون ثائرًا... فإن الظروف الثقافية ما كانت لتسمح للبارودى بأن يكون شاعرًا عربيا من طراز الشعراء الفحول.

فقد كان عصر البارودى يمثل آخر ما وصل إليه الشعر والأدب من هبوط فى الشكل والمضمون... فليس للشعر

ولا للكتابة، إلا الأسلوب السائد فى الشعر والنثر معًا والذى يعتمد على الجناس الرخيص، والتلاعب بالألفاظ والركاكة فى التعبير، والزخارف التافهة التى تشبه ألوان الحناء والهباب!

وفجأة ظهر فى مصر شاعر فحل يتحدى بجزالة لفظه ومتانة عبارته... أشهر الشعراء القدامى، فمن أين له هذا؟! إنه لم يدرس الأدب فى الأزهر، ولم يدرسه بطبيعة الحال فى المدرسة الحربية، ولكنه كان موهوبًا، وقد صقل موهبته بذاكرته القوية التى وعت عشرات الألوف من قصائد شعراء الجاهلية والإسلام، وكانت له أذن موسيقية أثرت فى صفاء الديباجة، ورنين الجملة الشعرية.

وأكثر شعر البارودى ينطوى على محاكاة قصائد من سبقوه من الشعراء، ولكن هذه المحاكاة اختفت فى عدة قصائد تجلت فيها أصالة الشعر، وتحددت فيها شخصيته الفنية...

ويرى البارودى أن خير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى، سليمًا من وصمة التكلف، بعيدًا عن نزوة التعسف، غنيًّا عن مراجعة الفكرة. ويرى أن هذه هى صفة الشعر الجيد... وهذا الرأى يحتاج

إلى تمحيص شديد... ولكنه على كل حال... يغرى بتقدير الشاعر والإشادة بمكانته وبخاصة إذا عرفنا أن البارودى كان الجسر الذى يمر عليه الشعر العربى من مرحلة التفاهة والهبوط... إلى المراحل التى وصل إليها بعد ذلك...

وقد ذكر أستاذه الشيخ حسين المرصفى أن البارودى لم يقرأ كتابًا فى فن من فنون العربية، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد فى طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله، وكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين... أو يقرأ وهو بحضرته، حتى تصور فى برهات يسيرة هيئات التركيب العربية، فصار يقرأ وهو لا يكاد يلحن...

ويبدو مما ذكره الأستاذ المرصفى... أن البارودى كان موهوبًا فى حفظ الشعر وفهمه ونظمه، وأنه لم يتعلم أصوله، بل لم يدرس كتابًا فى الأدب. ونحن لا نستطيع أن نستهين برأى المرصفى... فهو أستاذ البارودى، ولكن لا ينبغى أن نسلم بهذا الرأى على إطلاقه، فإن شعر البارودى ينم على تجارب ذاتية وتجارب ثقافية، ولعله اكتسب هذه التجارب الأخيرة من أساتذة غير أستاذه المرصفى. وقد أفاد ولا شك من

احتكاكه بالمصلح الثائر جمال الدين الأفغانى وتلامذته الذين كانوا يمثلون اليقظة الذهنية... التى أشعلت الثورة السياسية والثورة الفكرية... وكان البارودى قبل الثورة العربية ينظم قصائد يحض فيها على التخلص من الظلم ويهدد المالكين بزوال ملكهم يقول:

يأيها الظالم فى ملكه   أغرك الملك الذى ينفذ
أصنع بنا ماشئت من قسوة   فالله عدل والتلاقى غد

وشعره فى المنفى ينبض بالحنين إلى زوجته وبيته وبلده..

ومن شعره الرقيق وهو فى المنفى هذه القصيدة:

كيف لاأندب الشباب وقد   أصبحت كهلا فى محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتى وكسانى   خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على   عينى حتى أطل كالهداب
لاأرى الشيء حين يسنح إلا   كخيال.. كأننى فى ضباب
وإذا مادعيت صرت كأنى   أسمع الصوت من وراء حجاب
لم تدع صولة الحوادث منى   غير أشلاء همة فى ثياب

ويصف أباريق الشاى وكئوس الشاى فيقول:

فى أباريق كالطيور أشرأبت   حذر الفتك من صياح البزاة
حانيات على الكئوس من الرأ   فة يرضعنهن كالأمهات

ويقول متغزلا :

تركتني من غمرات الهوى   في لج بحر بالردى زاخر
أسمع في قلبي دبيب المنى   وألمح الشبهة في خاطري
فتارة أهدأ من روعتي   وتارة أفزع كالطائر!

الرحالة العربى الثائر

«جاء مصر وأدى رسالته ، ثم
مات فى ظروف مريبة !!»

استيقظت القاهرة فى ساعة مبكرة من الصباح على نبأ هزها من الأعماق. وأثار الحزن والدهشة، وفتح باب الريبة والشك على مصراعيه...

كيف مات... العالم المفكر الثائر هكذا بغتة ؟! وقد كان إلى ما بعد منتصف الليل يجلس فى مقهى يلدز بالقرب من حديقة الأزبكية وحوله أصدقاؤه من الثائرين والمفكرين وقادة الرأى يتناقشون فى السياسة والعلوم وفنون الأدب، وكان يشترك فى المناقشة بصوت هادئ وابتسامة حذرة، فقد جاء إلى مصر موئل الأحرار... ليقول كلمته ضد الاستبداد عامة... وضد استبداد الدولة العثمانية بوجه خاص... واستطاع أن يؤدى رسالته بشجاعة وجرأة، وصلابة استفزت غضب

السلطان عبدالحميد، ولقيت تجاوبًا جارفًا من الشعب العربى، وأرضت شعور الخديو عباس... فقد كان مختلفًا مع السلطان!

وفوجئ الناس بنبأ وفاة عبد الرحمن الكواكبى... صباح يوم الجمعة ١٥ يونيو من عام ١٩٠٢. وكان إلى ما قبل ساعات يتحدث ويبتسم، ومخايل الصحة بادية عليه... وامتدت الأصابع إلى الخديو عباس... منوهة بأنه هو الذى قتل الكواكبى!!

ولكن... متى استطاع عباس ذلك، وقد ظل الكواكبى مع أصدقائه فى المقهى إلى ما قبيل الفجر وذهب إلى البيت فى صحبة ابنه كاظم؟ وكيف يقتل الخديو عبد الرحمن الكواكبى وكان موضع إكرامه، وقد اختار الكواكبى لنشر مقالاته عن «طبائع الاستبداد» فى جريدة المؤيد... التى كانت اللسان المدافع عن عباس ضد جميع أعدائه فى الداخل والخارج...

إن الذين تناولوا حياة الكواكبى بالبحث الموضوعى أو الدراسة الجانبية... بينهم معاصرون له أمثال رشيد رضا،

ومحمد كرد علي، وأحمد شفيق، وبينهم من تعمقـوا فى تحليـل اتجاهاته السياسية وفلسفته فى إصـلاح الأمـة وتـدعيم قـوة الإسلام... مثل الأساتذة: أحمد أمين وعباس محمـود العقـاد وسامى الدهان. وقد سلطوا الضوء العالى على حادثتين هامتين فى تاريخ الكواكبى... حـادثة وصـوله إلى مصر خـلال فـترة تأزمت فيها الأمور بين الخديو والباب العـالى فى الأسـتانة... وحادثة وفاته فى ظروف غامضة...

ولكى لا يتوقف القراء وهم يتابعون هذا الكلام عن عبدالرحمن الكواكبى... يجب أن نعقد بينهم وبين الكواكبى علاقة شخصية تقربه إليهم، بحيث يرونه كائنًا حيًا مازال يعيش بينهم.

كان مولد الكواكبى فى مدينة حلب عـام ١٨٤٨، ومـات فى القاهرة عام ١٩٠٢. وقد تعـلم فى بلـده، وأتقـن اللغتـين الفارسية والتركية، واعتمد فى صقل مواهبه وتنمية ثقـافته... على الكتب التى تصدر بهاتين اللغتين، وعلى الكتب العـربية، وأفاد من احتكاكه بالمناقشة والجدل مع المتابعين للثورة الفـكرية فى أوربا، وقد تلقى من هؤلاء معلـومات... فتـح بهـا آفـاقًا جديدة لدعوته التى حـددها فى نقـطتين. رفـع كلمـة الأمم

الإسلامية، وتقويض دعائم المستبدين، وبخاصة دولة آل عثمان.

وقد بدأ حياته صحفيًا فى جريدة تصدر باللغتين العربية والتركية... اسمها «فرات»، ثم أصدر بضع صحف فى حلب، وكان يهاجم فيها السلطان وأعوانه ويدعو إلى قيام خلافة روحية «قرشية»... واتهمه خصومه بأنه يريد أن يكون هو خليفة المسلمين، وأكدوا اتهامهم هذا بحرص الكواكبى على توضيح انتسابه إلى قريش واعتزازه بمجد الآباء والأجداد.

ولم يتمكن الكواكبى من أن يرفع صوته فى حلب... إلا بقدر ما نشر من مقالات «أم القرى»، التى دعا فيها إلى قيام جامعة إسلامية.

وكان على الرغم من حدته فى التعبير عن آرائه... يتهيب سطوة القانون، فلم يحض على ثورة دموية... كما كان يعمل المصلح الثائر المفكر جمال الدين الأفغانى. كان حريصًا فى مهاجمة الاستبداد على أن تكون المهاجمة فى إطار «قانونى» فلا يتهم مستبدًا بعينه، ولا يحدد شخصيات بالذات...

وعندما أقام فى مصر ونشر مقالاته عن « طبائع الاستبداد »، لفت إليه الانتباه من المفكرين والثائرين وكسب احترامهم ومودتهم... ومع ذلك كان يجالسهم فى حذر، ويناقشهم فى حذر، فقد يكونون جميعًا من الأحرار الثائرين، ولكن مفاهيمهم للحرية والثورة كانت مختلفة متباينة، ففيهم الثائرون على كل شىء، وفيهم الثائرون على شىء... والراضون عما عداه من الأشياء !!

وهو لا يريد أن يغضب أحدًا منهم، فليس من السياسة أن يعادى من يحتفون به... وقد كان بتكوينه الذهنى وبحكم التجارب التى تمرس بها... شخصية سياسية من طراز ممتاز.

وكانت مصر فى تلك الأيام نهبًا لتيارات فكرية ثورية ضد الاستعمار الإنجليزى والفرنسى، وضد الخديو، وضد الخليفة السلطان عبدالحميد... الذى استعبد المسلمين عندما كانت دولته قوية، وتعقب أحرارهم بالدسائس والاغتيالات... بعدما صارت الخلافة والسلطنة ودولة آل عثمان عناوين ضخمة ليس لها موضوعات !...

وكان من يحارب الإنجليز... يتحالف مع الفرنسيين أو

مع الخديو أو مع السلطان، ومن يحارب واحدًا من هؤلاء من الأعداء يتحالف مع عدو آخر أو يتحالف مع بقية الأعداء. . .

وكانت مصر مركز إشعاع للفكر الثورى المتمرد على الاستعباد بكل أنواعه وأوضاعه، فهذا البلد الجذاب بآثاره وتاريخه، بلد سياحى يستقبل السياح العاديين ويودعهم بحفاوة أو بغير اكتراث، فإذا زارته عبقرية فذة، أصبح البلد السياحى مقرًّا دائمًا للعبقرية الفذة، ووطنًا أصيلا لصاحب العبقرية. . .

ولقد كان عبد الرحمن الكواكبى عبقريًا طاف بكثير من البلاد، ولم تطل إقامته فيها، ولم يجد فى أى بلد طاف به ظروفًا تسمح له بتأدية رسالته، فلما طاف بمصر، أحس أنها الحرم الآمن الذى يفتح له رحابه ليذكر كما يشاء، ويعتبر كما يشاء.

وقد وفد إلى مصر عام ١٨٩٩، ولقى ربه فيها عام ١٩٠٢، وخلال هذه الفترة قام برحلتين إلى بلاد كثيرة، وفى ذلك يقول : السيد رشيد رضا :

« إنه وجه همته أخيرًا إلى التوسع فى معرفة حال المسلمين ليسعى فى الإصلاح على بصيرة، فبعد اختباره التام لبلاد تركيا والأرمن، والأكراد ومصر، والسودان، وسواحل أفريقيا الشرقية، وسواحل آسيا الغربية. . . اختبر بلاد العرب التى كانت موضع أمله. فدخلها من سواحل المحيط الهندى. وما زال يوغل فيها. . . حتى وصل إلى سوريا، واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل، وعرف استعدادهم الحربى والأدبى وحالة البلاد الزراعية ودرس كثيرًا من معادنها وأحضر منها نماذج ».

ويستطرد السيد رشيد رضا فيقول:

« إن الكواكبى انتهى فى رحلته الأخيرة إلى (كراجى) من موانى الهند، وسخر الله له فى عودته سفينة حربية إيطالية فطافت به سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقية الشرقية. . . فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختبارًا سبق به الإفرنج.

وكان ينوى أن يقوم برحلة إلى أوربا. . . لولا أن المنية عاجلته ». . .

ولكن القراء ما زالوا يعرفون الكواكبى برحلاته وأفكاره. . . ودعوته الإصلاحية فى سبيل الإسلام، وضد

الاستبداد، ولم يعرفوه بعد كإنسان له صوت وملامح...
فكيف كان الكواكبي؟

يقول صديقه الأستاذ كامل التعزى:

«كان مربوع القامة، حنطى اللون مستدير الوجه، خفيف العارضين أقنى الأنف، واسع الجبين، ذا عينين زرقاوين، معتدل المقلة، لا غائرة ولا جاحظة، معتدل فتحة الفم، أزج الحاجبين، صغير الأطراف، معتدل الجسم بين السمن والهزال، أسود الشعر... قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى مصر».

ويقول صديقه الأستاذ إبراهيم سليم النجار:

«... وإنه كان أبيض الوجه بياضًا مشربًا بشيء قليل من الحمرة شأن سكان البلاد الباردة، وقد أحاط خديه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه ومد فيها الشيب خيوطه».

ويقول ابنه الدكتور أسعد الكواكبي:

«كان ربعة إلى الطول أقرب، قويّ البنية صحيح الجسم عصبي المزاج، أشهل العينين، أزج الحاجبين، أبيض اللون، واسع الفم، عريض الصدر، أسود شعر الرأس والذقن،

يتأنق فى لباسه، يتكلم بجهر هادئ وسلاسة وابتسام، يحسن السباحة والصيد والفروسية».

وهكذا... يستطيع القارئ أن يرنو بعينيه فيرى أمامه عبد الرحمن الكواكبى من خلال هذه الأوصاف، وإن كان سيلاحظ اختلافًا ملموسًا... بين من وصف فتحة فمه بالاعتدال... ومن وصف الفم بالاتساع... وبين من قال إن لونه قمحى... ومن قال إنه أبيض البشرة...

وقد سجل الأستاذ العقاد فى كتابه عن الكواكبى هذه المعلومات :

«سمعنا وصف سجاياه وملكاته العقلية ممن عاشروه، كما قرأنا هذا الوصف بأقلام مترجمة. فرأيناهم يتفقون على سجايا خلقه وملكات عقله. اتفاقهم على سماته وتكوين جسده، كأنهم ينظرون إلى ملامح محسوسة لا تخطئ العين رؤيتها ولا يختلف الناظرون إليها فى وصفها. فما من ترجمة له لم تبرز فى الكلام عليه صفات الوقار والحلم والنجدة، وعفة اللسان وحسن الملاحظة، وصدق الإرادة، وكأنما تثبت هذه الصفات فى نفوس عارفيه لأنها جاوزت أن تكون صفات مقدورة

وأصبحت أعمالا متكررة يؤيد بعضها بعضًا... فلا ينساها من رآها وسمع بها وبآثارها»...

ونعود إلى الحادثتين الهامتين فى حياة الكواكبى... وهما حادثة وصوله إلى مصر، وحادثة وفاته. وكلتاهما ترتبط بالأخرى فى مجال اتهام الخديو عباس بدس السم للكواكبى فى الطعام.

فقد جاء الكواكبى إلى القاهرة والأزمة على أشدها بين قصر عابدين وقصر يلدز. وأضفى عليه عباس ثوب الرعاية. وكان متحفظًا فى علاقته بأصدقائه من أعداء الخديو.. مثل الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا وغيرهما. وكان متحفظًا كذلك فى علاقته بأصدقاء الخديو... فهو لا يؤثرهم بمودته، حتى لا يثير حوله شبهة تبعيته للخديو...

وقد ذكر الأستاذ محمد كرد على، وهو صديق الكواكبى، هذه الرواية:

«جاءنى الكواكبى ذات ليلة ليستشيرنى فى أمر عظيم فقال إن الخديو عباسًا عرض عليه أن يصحبه إلى الآستانة ليقدمه إلى السلطان العثمانى ويستجلب رضاءه عنه... وبذلك تنحل

المشادة ويطمئن خليفة الترك إليه».

ويمضى كرد على، فيذكر أنه صعب عليه وعلى صديقه رفيق العظم أن يبديا رأيهما فى موضوع خطير كهذا؛ لأن السلطان العثمانى لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه، وخشيا أن تكون هناك دسيسة يذهب الكواكبى ضحيتها.

ويستمر كرد على فى روايته... فيقول:

إن الكواكبى أخبره هو وصديقه العظم أنه حائر فى أمره بين القبول والرفض، وأنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلا، وانفض المجلس وذهب السيد الكواكبى إلى داره، فما هى إلا ساعة وبعض ساعة، حتى سمعنا ابنه كاظم فى الباب يبكى وينوح ويقول: «قم ياكرد على، فإن صديقك أبى قد مات»...

وروى أحد أصدقائه أنه ذهب إلى الإسكندرية بدعوة من الخديو عباس لبضعة أيام.

والذين أشاروا إلى الخديو بقتل الكواكبى... لم يؤيدوا اتهامهم بصراحة، وإن كانت الظروف والملابسات التى أحاطت بوفاة الكواكبى تكاد تثبت الاتهام... مثل التعجيل بدفنه،

والحرص على التأكيد أنه مات بالذبحة الصدرية، واهتمام بعض الصحف بنشر أعراض الذبحة... وتطبيقها على ما شكا منه الكواكبي ليلة وفاته...

وهكذا عاشت أفكار الكواكبي في مصر، وانطلقت من مصر... وقد جذبته مصر وهو حي. فأدى فيها رسالته، وجذبته وهو ميت... فكان مقره الأخير فيها...

أراد الحرية للعقل واللغة والمرأة

امتلأت حديقة الدار بزعيق صاخب.. . اختلطت فيه لهجة السفرجي النوبي، وصوت البواب الصعيدي، ونبرة الجنايني الريفي، ونباح الكلاب الضخمة التي تحرس الدار القائمة وحدها في شارع الهرم.. . لاشيء قبل هذه الدار، ولا شيء بعدها إلا فندق مينا هاوس والأهرام، وأبو الهول!!

وأطل صاحب الدار من نافذة الطابق الأول، فرأى شجارًا عنيفًا.. . اشتبك فيه زائر ببذلة سوداء، وطربوش أحمر، والتف حوله الخدم، ينهرونه بالعبارات الصارخة، ويدفعونه بالأيدي، ويجذبونه من كتفه ليخرجوه من البيت!

وكان الزائر يصيح: أريد أن أقابل سعادة المستشار' قال أحد الخدم: إن سعادة البك لا يقابل أحدًا في منزله.. . وقال له خادم آخر أنت كذاب.. . إنك لم تطلب مقابلة المستشار.. . ولكن طلبت مقابلة الست الكبيرة!!

وقال له خادم ثالث : أنت رجل وقح، ولا بد من ضربك !!

وكان المستشار قاسم أمين عندما أطل من النافذة، قد سمع هذا الحوار... ورأى المشاجرة الحامية بين خدمه والزائر الغريب... فأمر الخدم أن يكفوا عن الضجيج، وسأل الزائر : هل تريد مقابلتى لأمر يتعلق بقضية من القضايا ؟

وقال الزائر : لا...

لو حدثتنى عن قضية... فسوف أدعو النيابة إلى التحقيق معك... وقد ينتهى التحقيق بالقبض عليك...

الزائر : ليس لى قضية عندك ولا عند سواك من المستشارين ؟

– هل تعلم لماذا اخترت هذا المكان النائى لأسكن فيه ؟

الزائر : لا أعلم !!

ـ لأكون فى عزلة عن الناس... إن المتقاضى يختلف عن المريض فى شىء واحد... المتقاضى يطمئن إلى قاضيه إذ كان القاضى بعيدًا عنه وعن خصومه... والمريض لا يطمئن إلى طبيبه إلا إذا كان قريبًا منه !!

الزائر : أريد مقابلتك لشىء آخر . . .

- تفضل . . .

ومشى الزائر ، وقد تقدمه السفرجى ليدله على باب الغرفة التى كان قاسم أمين يتحدث من شرفتها . . . ورحب قاسم بالزائر ، وسأله هل يشرب قهوة أو شايًا أو عصير ليمون ؟

وفتح الزائر فمه بكلمه ، والتفت قاسم أمين إلى السفرجى وقال له : قهوة سادة ياحسن !!

ومرت لحظة صمت ، كان الزائر خلالها يتأمل فى هذا المستشار الذى اكتسب سمعة طيبة فى نزاهته وعدله ، وكفايته القضائية . . . واكتسب سمعة أخرى سيئة فى أفكاره ! . . . فهو فى نظر الجمهور إباحى فاسق فاجر . . . وهل هناك دليل على الإباحية والفسق والفجور ، أكثر من أن ينادى رجل بأن تخلع المرأة برقع الحياء . . . وتمشى فى الطريق بوجه مكشوف . وليس هذا فحسب . . . بل إنه يريد للمرأة أيضًا أن تختلط بالرجال ، وتمارس أعمالهم ، وحقوقهم ، وواجباتهم ، وهكذا تتساوى المرأة بالرجل ، وتنقلب من مجرد متعة ، أو قطعة أثاث فى البيت . . . إلى إنسان له رأى ، وإرادة وتفكير . . .

أيه جريمة نكراء تنطوى عليها تلك الدعوة الجريئة ؟ وبماذا تصف رجلا يرتكب مثل هده الجريمة ؟ إن أقل ما يوصف به أنه زنديق، كافر، متساهل فى عرضه وشرفه !!

ومع ذلك، ويا للعجب ! . . . يضرب أصدقاؤه بعدالته الأمثال، ويتكلمون عنه كما يتكلمون عن رجل شريف !!

وجاءت القهوة، والتفت الزائر حوله، فلم يجد فى الغرفة غير قاسم أمين ومكتب صغير، وبعض الكتب والمقاعد، فدنا منه وقال له :

ـ أنا عاوز الست بتاعتك ! . . .

وقال قاسم أمين فى هدوء :

ـ عاوزها فى إيه ؟

قال الزائر : ألست تدعو إلى اختلاط المرأة بالرجل، والقضاء على الحجاب ؟ أعطنى امرأتك لأخرج معها ! . .

وابتسم قاسم أمين فى مرارة وقال للزائر : إن الدعوة إلى السفور والقضاء على الحجاب، وإعطاء المرأة حقها كإنسانة . . . لايعنى تحويلها من متاع خاص للزوج، إلى متاع عام للناس ! ودعوتى إلى تحرير المرأة من رق الحجاب، وسجن

الحريم، هى فى الوقت نفسه... دعوة إلى تحرير الرجل من مفهومه للمرأة... ولن تتحقق حرية المرأة إلا إذا تحقق تحرر الرجل من نظرته إلى المرأة!!

قال الزائر: ولكننا لم نفهم هذا من نطريتك التى تنادى بها!!

وقال له قاسم أمين: لن تفهم النظرية حتى تتحرر!

قال الزائر: إلى حرية الرجل تدعو... أم إلى حرية المرأة؟

- أنا أدعو إلى تحرر الإنسان... والإنسان رجل وامرأة!!

وبكى الزائر المجهول، وأصر على أن يقبل يد قاسم أمين... فرفض قاسم وقال له: لاتمنح قبلتك إلا لامرأة... زوجتك، أمك، أختك... فإذا كانت المرأة التى تقابلها ليست الزوجة ولا الأم، ولا الأخت... فمن حقك، بل من واجبك، أن تقبل يدها!! وهذا هو الفرق فى معاملة الرجل والمرأة!!

كان ذلك فى عام ١٩٠٧... وكانت دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة قد لقيت ضجة فى الرأى العام... وقد

تحمس المتزمتون لمحاربة الثائر المفكر المصلح، واتهموه بشر التهم، وحمل عليه رجال الدين حملة شعواء، وتصدى للرد عليه فى كتاب خاص... شاب أصبح فيما بعد، من أكبر الشخصيات العظيمة التى بنت اقتصادنا، وساهمت فى تصنيع بلادنا... وهو طلعت حرب باشا!!

وقبل أن يموت طلعت حرب... كان بين موظفى البنك الذى أنشأه بضع فتيات. ورفعت ابنته الحجاب، وأعطاها والدها حق الموافقة على الزواج من خطيبها محمد رشدى الذى صار رئيس مجلس إدارة بنك مصر فيما بعد...

وكان أصحاب الرأى، وقادة الفكر، يكتمون إعجابهم بشجاعة قاسم أمين، وبرغم ما يربطهم به من صلات الصداقة والزمالة... لم يستطيعوا أن يجازفوا بتأييده فى دعوته الخطيرة... خوفًا من أن تنالهم ألسنة السوء!!

... أيد لطفى السيد قاسم أمين بتحفظ وحذر... التزم سعد زغلول الصمت، فلما أصبح زعيمًا للبلاد، فى عام ١٩١٩... شجع حركة السفور التى قامت بها فى تلك الأيام هدى شعراوى وأم المصريين!!

ولكن هذا التأييد، وهذه الحركة جاءا بعد وفاة قاسم أمين بحوالى أحد عشر عامًا !!

وما دعا إليه قاسم أمين فى كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»... قد يبدو الآن أمرًا عاديا، ولكنه فى تلك الأيام كان ثورة اجتماعية عميقة، زلزلت الأفكار، والآراء...

وإذا كانت الثورات تستمد قوتها ونماءها من اندلاعها ساعة وقوعها فإن الثورة التى قام بها قاسم أمين لم تشتعل عندما حدثت، فقد قاومها العرف والتقليد، والمتصدون للدفاع عن الأديان والعقائد... قاومتها جمهرة الشعب لأنها لم تكن قادرة على فهم الدعوة، وقاومها الحكام والإقطاعيون ليحتفظوا بمظاهر الجاه المتمثلة فيما يملكونه من حريم ! وقاومها الاحتلال البريطانى خوفًا من أن يرميه الشعب بمساعدة الداعين إلى خرق العادات والتقاليد !!

ولقد قدر قاسم أمين ما ستثيره دعوته المضنية من النفور والخوف والفزع... ولكنه لم يبال ذلك، فى سبيل ما يؤمن بأنه حقيقة. ولقد مهد لكتابه «تحرير المرأة» بمقدمة قال فيها :

«هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم، شغلت فكرى مدة

طويلة، كنت خلالها أقلبها، وأمتحنها، وأحللها، حتى إذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ، استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني، وصارت تشغلني، وتنبهني بمزاياها، وبالحاجة إليها... فرأيت أن لا مناص من إبرازها !! »

ولم يكد كتاب «تحرير المرأة» يخرج من المطبعة، حتى هبت عواصف السخط والنقمة على قاسم أمين...

ولم يهتز قاسم للعواصف الحمقاء... فقد كان يدعو إلى فكرته بمنطق ووعي، وإيمان. وكان الضمير هو القوة الوحيدة التي يعتمد عليها، والقوة الوحيدة التي يخشاها...

فهو صاحب سلوك خاص مستقل. في أفكاره، ومشاعره ونظرته العامة إلى الأمور... وقد يرضى المجتمع عن هذا السلوك وقد يثور عليه... ولكن قاسم أمين لا يبالي الرضا ولا يبالي الغضب... إن كل ما يباليه هو أن يتمشى سلوكه الذهني، والعاطفي، والاجتماعي، مع فلسفته القائمة على تنمية الحياة بالحب، والخير، والحرية والجمال ونقاء الضمير...

ويبدو هذا واضحًا في أحكامه القضائية، وفي سعيه إلى

إنشاء الجامعة المصرية، وفى مطالبته بتحرير المرأة وفى دعوته إلى تيسير قواعد اللغة حتى يستطيع الناس أن يقرءوا ليفهموا... لا أن يفهموا ليقرءوا.

كان قاضيًا رحيمًا، وكانت أحكامه تتعارض أحيانًا مع حرفية القانون... ولكن الأسباب التى يشرح بها ما يصدره من أحكام، لفتت إليه انتباه المشتغلين بالفقه والقانون وكبار رجال القضاء، ورأوا فى هذه الأسباب نظريات قانونية، أكثر عدالة من القانون نفسه... ولهذا شق طريقه فى السلك القضائى، حتى وصل إلى منصب المستشار وهو فى حدود الأربعين... وكانت هذه السن تعد طفولة بالنسبة إلى قاض عادى، فضلا عن مستشار فى محكمة الاستئناف!!

وقد ساعده على انطلاق تفكيره فى حرية، وإبداء رأيه بشجاعة، ثقافته الواسعة، واستقامة خلقه، فهو يعتز بكرامته، إلى أبعد حد... ولا يتملق الحكام وأصحاب السلطان، ولا يمارس من العادات والهوايات ما يثير شكًّا أو ريبة، وكان يقضى أكثر وقته فى بيته المنعزل عن صوصاء المدينة يعكف على دراساته القضائية، والأدبية، والعلمية، والاجتماعية...

وهذه الشخصية المهذبة المترفقة، ليست وليدة أسرة غنية ذات جاه... فقاسم أمين من عائلة متوسطة الحال، أبوه مصرى، وجده أمير كردى، ولكن إمارة الجد انتهى ثراؤها بوفاة صاحبها!! شخصية قاسم أمين إذن نبعت من نفسه، وصقلها العلم، والخلق، ونفسيته الطيبة، المتحررة المشغوفة بالجمال.

وقد درس فى فرنسا، وعاد إلى مصر فى عام ١٨٨٥، وشغل إحدى الوظائف القضائية، وظل منذ ذلك التاريخ، يسير فى الحياة على منهجه المستقيم: زوج مثالى، أب مثالى لابنة وحيدة، قاض مثالى، مفكر مثالى، مصلح اجتماعى مثالى...

وكانت رياح الغضب تهبّ عليه من الرأى العام، فلا تؤثر فى آرائه، ولا تزعزع عقيدته، ولا تثير أعصابه، فقد كان هادئًا وديعًا... وكان يؤمن بالحرية إيمانًا مطلقًا... يدافع عن حريته، ويدافع عن حرية مخالفيه... ولو كانت طريقتهم فى الجدل تنم عن الجهل والتعصب، ورميه بأقذع الشتائم والسباب...

إن القاضى قاسم أمين، لم يصدر حكما واحدًا بالإعدام

على أحد من المجرمين . . . لأنه يرى - منذ ستين عامًا - أن الإعدام عقوبة لا يمكن علاجها إذا ثبت خطأ القاضى . . .

ومن أقواله المأثورة : « إن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لإصلاح الذنب، ومعاقبة الشر بالشر، إضافة شر إلى شر » . .

وهو صاحب الكلمة المعروفة : « أعرف قضاة حكموا بالظلم، ليشتهروا بين الناس بالعدل !! » . .

هذه الآراء كانت كفيلة فى تلك الأيام، أن نسوقه إلى المحاكمة، أو تقصيه عن مركز القاضى، ولكنها لم تنل من مكانة قاسم أمين؛ لأن إيمان الرأى العام بنزاهة قاسم، وعمق تفكيره، وإخلاصه فى رأيه، كان أقوى من غضب الرأى العام نفسه على ما يرى فى هذه الآراء من شذوذ، وجنوح عن المألوف . .

وقد فكر جماعة من المفكرين فى إنشاء جامعة مصرية، وكان بينهم زعماء معروفون، وأصحاب نفوذ سياسى، وخطباء يلهبون مشاعر الجماهير بالعبارة الرنانة أو الكلمة الساحرة مثل سعد زغلول، وكان قاسم أمين، واحدًا من هؤلاء المفكرين،

ولكنه لم يكن زعيمًا، أو سياسيًّا، أو خطيبًا.. ومع ذلك تولى مهمة إقناع الناس بالفكرة.

كان يطوف بالأقاليم، ويعقد الاجتماعات، ويشرح الهدف من إنشاء تعليم جامعى.. فنظام التعليم القائم لم يكن يهدف إلى رفع مستوى العقل، وتحرير الفكر من ربقة الجهالة... وإنما كان هدفه ملء الوظائف الحكومية بأصحاب مؤهلات خالية من الثقافة العلمية!! وكان من يشغل وظيفة ينقطع عن متابعة الدرس والبحث، ويتفرغ لمتابعة الترقى من درجة إلى درجة!!

وكان قاسم أمين وزملاؤه يرون أن التعليم لا ينبغى أن يكون وسيلة لوظيفة، وإنما يجب أن يكون وسيلة وغاية للإنسان. وفى ذلك يقول: «نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة، أو الالتحاق بوظيفة، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبًّا للحقيقة، وشوقًا إلى اكتشاف المجهول.. فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم... نود أن نرى من أبناء مصر ـ كما نرى فى البلاد الأخرى ـ عالمًا يحيط بكل العلم الإنسانى،

واختصاصيًا أتقن فرعًا مخصوصًا من العلم، ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به، وفيلسوفًا اكتسب شهرة عامة، وكاتبًا ذاع صيته فى العالم.. أمثال هؤلاء هم قادة الرأى عند الأمم الأخرى.. والمرشدون إلى طريق نجاحها.. والمدبرون لحركة تقدمها..

«إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم، هو عيب عظيم، يجب أن نفكر فى إزالته، وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية إحساسنا، وأهملت تربية قلوبنا، فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج، فى جميع أمورنا، حتى فى الأشياء التى يجب بطبيعتها أن تكون بعيدة عن الفوائد... كعلاقات الأقارب والأصحاب...»

ويقول: «إن الارتقاء فى الإنسان تابع لإحساسه، وإن أكثر الناس استعدادًا للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث، وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغًا عظيمًا، فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة... أولئك هم السعداء الأشقياء... الذين يتمتعون، ويتألمون، أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة، تراهم فى

الصف الأول مخاطرين بأنفسهم، يتنافسون فى مصادمة كل صعوبة.. من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم، وتوحى إليه بأسرارها فيصير شاعراً بليغًا، أو عالمًا حكيمًا، أو وليا طاهرًا... كريمًا!!».

ثم يقول: «ولى أمل عظيم أن إنشاء الجامعة المصرية يكون سببًا فى ظهور شبيبة هذا الجيل، وما يليه على أحسن مثال»..

بهذا الوضوح وهذا الفهم العميق، وهذا الاقتناع بالفكرة، استطاع قاسم أمين أن يقنع الشعب، بوجوب إنشاء تعليم جامعى، ولم يكن قاسم أمين خطيب جماهير، ولكنه كان أستاذًا محاضرًا، يستخدم المنطق، والنظريات، ويعبر بأسلوب سهل متحرر من الركاكة، والاعتماد على انتفاخ اللفظ، وفراغه من أى معنى... وكان صوته المدوى لا ينطلق من حنجرته، ولكن ينطلق من نبض أفكاره ومعانيه.

وقد سجل الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى كتابه «تراجم مصرية وغربية»، أن قاسم أمين ظل عاملا مع أصحابه مجدًّا يستنهض الهمم ويجمع الأموال، ويهيئ كل

أسباب نجاح الجامعة، وأنه بين فكرته عنها فى خطاب ألقاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فدانًا للجامعة... فماذا قال قاسم أمين عن هذا التبرع أو هذه الأريحية؟ هل خلع على صاحبها صفات الكرم والسخاء التى كان الناس يخلعونها على من يتبرع بخمسة جنيهات لمشروع خيرى؟ كلا... ولكنه قال: «إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرًا، ولا تعلن عن نفسها. عاش آباؤنا، وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم، وحاربوا الأمم، وفتحوا البلاد، ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم، فيحسن بنا أن نقتدى بهم... فنهجر القول، ونعتمد على العمل»...

إن قاسم أمين المصلح المفكر ينتهز كل فرصة ليقيم مفهومًا جديدًا صحيحًا للمعانى والتصرفات، فتبرع الناس لإنشاء جامعة ليس تضحية منهم، ولكنه واجب يؤدونه لوطنهم. والوطنية شعور غريزى، لا تصح المباهاة به أو الإعلان عنه!!

وتأمل قاسم أمين فى اللغة التى نعبر بها، فوجد أننا نؤلف الحروف والألفاظ، ولا نؤلف جملة! أما إذا استخدمنا

تعبيرًا تعلمناه عن الأقدمين فيجىء أصم غامضاً، باهتًا أو فارغًا يحدث رنينًا ليس له معنى!

فكان يبحث دائمًا عن الجملة المعبرة التى نسمع لها فرقعة، وكان يحسّ الحسرة كلما وجد أننا لا نستطيع أن نقرأ لغتنا قراءة صحيحة: فنادى بتيسير قواعد اللغة، وغالى فى ذلك، حتى إنه دعا إلى تسكين أواخر الكلمات.

ويقول: «لم أر بين جميع من عرفتهم شخصيًا من يقرأ كل ما يقع تحت نظره فى غير لحن، أليس هذا برهانًا كافيًا على وجوب إصلاح اللغة العربية؟ لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال... هو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل. بهذه الطريقة - وهى طريقة جميع اللغات الإفرنكية واللغة التركية أيضًا - يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال، بدون أن يترتب على ذلك إخلال باللغة، إذ تبقى مفرداتها كما هى».

ويقول أيضًا: إن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام، فى حين أخذت اللغات الأوربية تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى

الأدب، والعلوم. حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والإيضاح والدقة، والحركة، والرشاقة، وصارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث.

* * *

ولقد أحب قاسم أمين المرأة، ورأى فيها جوهر الحب، والحنان، وكان يقول: «إذا كان المال زينة الحياة.. فالحب هو الحياة بعينها» ويقول: «كل عشق شريف، فإن كان بين شريفين زاد فى قيمتها ورفع من قدرهما، وإن كان بين وضيعين ألبسهما شرفًا وقتيًّا»..

وليس حبه المرأة هو الذى دفعه إلى العمل على تحريرها، ورد حقوقها إليها ولكن دعاه إلى ذلك عمق تفكيره فى الحرية، واتساع نظرته إلى الإنسانية. وهو فيما دعا إليه قد تأثر ولا شك بتعاليم الثورة الفرنسية، وثورة جمال الدين الأفغانى وشخصية محمد عبده، وكان يمكن أن تموت صيحات قاسم أمين على فمه، لو لم يكن مقتنعًا بها، عن وعى وإيمان، ولكن صيحات قاسم أمين أصبحت سلوكًا اجتماعيًّا، ومناهج معترفًا بها..

فقد صار لنا تعليم جامعى، وتطورت لغتنا، واكتسبت الرشاقة والحركة، بدون أن تلجأ إلى مادعا إليه من تسكين أواخر الكلمات، وقام من بعده زميل له هو عبد العزيز فهمى باشا يدعو إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية.. وكانت دعوة عبد العزيز فهمى متأخرة أربعين عامًا!!

واتجاه قاسم أمين إلى إلغاء عقوبة الإعدام، أصبح اتجاه كثيرين، أو موضع مناقشة الكثيرين من المشتغلين بالفقه والقانون!!

وتحرير المرأة من رق الحجاب والجهل، والانعزال عن المجتمع، لم يعد فكرة.. بل هو أمر واقع، تجاوز ما أشار إليه قاسم أمين بمسافات كبيرة..

* * *

وعندما أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» خرجت طالبات المدرسة السنية سافرات الوجوه، وسرن فى شارع المبتديان، وكتبت الصحف فى ذلك الحين، أن الطالبات سرن كما تسير العاهرات... بلا حجاب!! ومشى الناس وراءهن يرمونهن بالحجارة!!

* * *

وفى مساء ٢٣ أبريل من عام ١٩٠٨، كان المستشار قاسم أمين يحتفل فى نادى المدارس العليا بوفد الطالبات الرومانيات اللائى يزرن مصر، وذهب إلى بيته واستقبلته زوجته وبنته، ولم يكد يأوى إلى فراشه.. حتى شعر بانقباض.. ثم لفظ آخر أنفاسه.. فقد مات بالسكتة القلبية..

وارتفع من هذا البيت لأول مرة صوت صاخب من سيدة.. تبكى زوجها أحر بكاء.

هذا البيت.. باعته أسرة قاسم أمين، وتحول فيما بعد إلى كباريه، حمل عشرة أسماء، وآخر هذه الأسماء هو « الأريزونا » !

أستاذ الشعراء يتيم

هل تعرف أستاذ الشعراء فى مصر؟ لاتتعب ذاكرتك وتستعرض أسماء شعرائنا الأحياء! فإنه ليس واحدًا منهم. لقد مات منذ حوالى أربعين عامًا.. بعد أن عاش ثمانين سنة.

بدأ حياته فى القاهرة طفلًا يتيمًا، أبوه من غمار الناس، ثم دخل مدرسة المبتديان، ومدرستى التجهيزية، والإدارة، والتحق ببعثة رسمية إلى فرنسا. فنال إجازة الليسانس فى الحقوق من جامعة إكس ليبان، وعاد إلى مصر فتقلد فيها أكبر المناصب. كان أول نائب عام مصرى. ثم محافظًا للإسكندرية ووكيلا لوزارة الحقانية (العدل)..

وفى عام ١٩٠٧ أحيل إلى المعاش.. وفى عام ١٩١٥ توقف عن نظم الشعر.. وفى عام ١٩٢٣ واجه الموت الذى طالما تساءل عن حقيقته فى حيرة وفى إيمان أيضًا..

فإسماعيل صبرى باشا كان يشك أحيانًا.. ولكنه لم يكن ملحدًا!

تعالى الله.. لا يعلم كنه الله إنسان
أتنكره؟ وأنت عليه - لو تعلم - برهان

ويخاطب ربه قائلا:

خشيتك حتى قيل: إنى لم أثق بأنك تعفو عن كثير وترحم
وأملت حتى قيل: ليس بخائف من الله أن تشوى الوجوه جهنم

كان إسماعيل صبرى رقيقًا فى حياته، تبدو رقته فى معاملته للناس.. فهو لا ينفر منهم ولا يجرى وراءهم، وإذا عثر على صديق تعلق به فى رقة، وإذا تصدى له عدو حاربه فى رقة أيضًا..

لم يكن أحد يعرف عن أبيه شيئًا، وكان الناس فى أيامه يفخرون بآبائهم، وقد نشأ يتيمًا، لم ير أباه.. فلم يذكره، ولعله كان واحدًا من الفقراء البسطاء الكادحين. والفقر والبساطة والكدح كانت فى تلك الأيام مثار السخرية، وأحس إسماعيل صبرى أنه بلا أسرة فجعل الإنسانية أسرته يتجه إليها فى تصرفاته، وينفعل بآلامها وأحلامها، وأحاط نفسه بسياج من دماثة الخلق والتشبث بالكرامة والتجاوب مع بلاده فى عواطفها وإرادتها وأمانيها، فلم يستطع أحد أن يتسلق

هذا السياج وينال من كرامة إسماعيل صبرى أو يعيره بأنه ليس له نسب وحسب. ولقد أشار الشاعر الخالد أحمد شوقى إلى ذلك فى قصيدته التى رثى بها صبرى فقال:

قل للمشير إلى أبيه وجده أعلمت للقمرين من أسلاف
شرف العصاميين صنع نفوسهم من ذا يقيس بهم بنى الأشراف؟

قامت الثورة العرابية، وجاء الاحتلال البريطانى ليحمى عرش الخديو توفيق فى عام ١٨٨٢، وكان إسماعيل صبرى يشغل المناصب القضائية فى المحاكم المختلطة، ولم نجد فى ديوانه ولا فيما نقل رواته عنه.. كلمة تعرض فيها لثورة عرابى بخير أو بشر، وكان صبرى مثل سائر الشعراء.. يرفع إلى الخديو قصائد المدح والتهنئة فى المناسبات، ولكننا لم نعثر له على قصيدة واحدة من هذا النوع، خلال عامى ١٨٨٢ و١٨٨٣.

وبعد هذا التاريخ ظهرت قصائد يهنئُ بها توفيقًا فى الأعياد والمواسم. وقد خلت قصائد التهنئة والمدح للخديو من أى تعرض بالثورة العرابية واقتصرت على التعبيرات التقليدية التى ابتذلها الشعراء من كثرة ما رددوها فى مثل هذا المجال.

وقصائد صبرى فى المناسبات الرسمية تهبط بمستواه فى اللفظ

والمعنى والذوق الفنى إلى هاوية النظامين فى عصور انحطاط الأدب العربى.. أما قصائده العاطفية والقومية، والقصائد التى بث فيها خواطره عن الحياة والموت، فإنها ترتفع به إلى ذروة الذوق والرقة والحساسية وحلاوة التعبير، وهو بهذه القصائد قد فرض أستاذيته على الشعراء وصارت له شخصية فنية منفردة تلمع فيها مخايل من خفة ظل الشاعر المصرى : البهاء زهير، ومن موسيق الشاعر العربى القديم.. البحترى.

وقد عاصر صبرى شاعرًا كبيرًا.. هو محمود سامى البارودى وكان البارودى قد بعث فى الشعر العربى الجزالة والفحولة، بعد فترة طويلة ظل الشعر خلالها يرسف فى المحسنات اللفظية الفارغة.

ولم يكن البارودى شاعرًا فحسب، لكنه كان أحد زعماء الثورة العرابية، وفى عام ١٩٠٩ أصدر كتابه «مختارات البارودى». فقرظه صبرى بقصيدة عبر فيها عن مفهوم الشعر عنده فقال : «شعر الفتى عرضه الثانى».

ولقد كان صبرى يحافظ على أشعاره النابعة من نفسه.. محافظته على عرضه، كان يديم النظر إليها ويصقلها وينسقها

ويخشى أن ينشر القصيدة إلا بعد مايطمئن إليها اطمئنانًا فنيًّا شاملا.

ولم يكن لصبرى منهج مدرسى فى الشعر، لكنه كان صاحب ذوق رقيق، وقد اكتسب رقة ذوقه مما قرأه للشعراء الفرنسيين والرومانسيين والتقت طبيعته المصرية الحديثة الساخرة المرحة بطبيعته المصرية القديمة الباحثة عن الروح والخلود، فكانت أشعاره تنبض بالفكرة، ولكنها لا تمس أعماقها.. وكان مثل أهل عصره فى كل مكان، لا يرى للفن وظيفة إلا الإمتاع والإثارة، وتشمل الإثارة ما يتعلق بالفكر والعاطفة معًا.

وكان ولعه بالفنون محصورًا فى «الطرب» فهو يحب الأصوات الجميلة وينظم لها الأغانى باللهجة المصرية، مثل:

«الحلو لما انعطف» و«خللى صدودك وهجرك»..

وقد نظم هذه الأغانى لعبده الحامولى ومحمد عثمان، ويروى عنه أصدقاؤه أنه كان يهيم بجمال الكلمة واللحن، كان إذا أعجبه لحن، ظل يسمعه أو يردده حتى تنتهى السهرة، وإذا أعجبه بيت شعر أخذ ينشده ولا ينشد سواه إلى أن

ينام.. دخل عليه أحد زملائه وكان من رجال القضاء فقال: السلام عليكم. ومد يده لمصافحته، وصافحه إسماعيل صبرى، ولكنه لم يرد السلام، بل أخذ ينشد هذا البيت للبحترى:

ما أحسن الأيام لولا أنها ياصاحبي إذا مضت لاترجع!

وعقدت الدهشة ملامح زميله.. فكان ينظر إليه فى تعجب، ويقلب كفيه وهو يقول: لاحول ولا قوة إلا بالله!

وغادره وتوجه إلى أنطون الجميل وخليل مطران وحافظ إبراهيم، وكانوا يجلسون فى أحد المقاهى، وأخبرهم أن إسماعيل صبرى أصيب بجنون، وسألوه: كيف؟! فروى لهم ما حدث وتوقع منهم أن يحزنوا.. فإذا هم يضحكون، وافهموه أن إسماعيل إذا أعجبه بيت من الشعر يظل يردده حتى ينام.. فقال وماذا تسمون هذا؟ وقبل أن يجيبوا أجاب هو قائلا: هذا جنون!! وتركهم غاضبًا..

وكان واضحًا فى حياة إسماعيل صبرى بغضه للاحتلال البريطانى ومساندته للمعركة الوطنية الشعبية التى يتزعمها مصطفى كامل، وعندما كان صبرى محافظًا للإسكندرية، أراد الزعيم الوطنى أن يعقد هناك اجتماعًا عامًا يلقى فيه خطابًا

سياسيًا، فأرسلت نظارة الداخلية تعليماتها إلى المحافظة بإلغاء الاجتماع، واحتج إسماعيل صبرى على هذه التعليمات وقال : أنا المسئول عن الأمن فى محافظتى.. ورخص بعقد الاجتماع وألقى مصطفى كامل خطابه التاريخى.. ولما مات مصطفى كامل.. رثاه إسماعيل صبرى بقصيدة باكية..

وظل مصطفى فهمى باشا يرأس الوزارة حوالى سبعة عشر عامًا، وكان متهمًا بممالأة الاحتلال، فلما استقال عام ١٩٠٨ نظم إسماعيل صبرى أبياتًا هجاه بها وعدة مقطوعات تناولت بالتجريح كل الوزراء الموالين للاستعمار، كان يدعو الشعب إلى إقامة حكم نيابى، ويحمل على الاستبداد، وقد أشاد بآثار مصر وحث المصريين على لسان فرعون أن ينهضوا ويستعيدوا مجدهم، وذلك فى قصيدته الكبيرة :

لاالقوم قومى ولاالأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
لاتقربوا النيل إن لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

وقد دعا إلى الوحدة بين الأقباط والمسلمين، وكان له دور كبير فى القضاء على الفتنة التى اشتعلت عقب مصرع بطرس غالى باشا، وفى ذلك يقول :

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قامت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملك لنا إذا ماتماسكنا وإلا فمصر للغرباء

وهو يحارب الزواج من اثنتين ويدعو إلى تعليم المرأة، وفى ذلك يقول :

« نحن فى حاجة إلى تعليم أبنائنا وبناتنا، بل إن حاجتنا إلى تعليم بناتنا أشد، لأن بنت اليوم أم الغد، وحضن الأم فى نظر العاقل مدرسة أولية يتلقى فيها الطفل المواد الأولى لغذاء جسمه وعقله، ولأن النساء نصف مجموع الأمة، وهيهات أن ينهض مجموع نصفه أشل »..

وهذه الآراء تتفق مع دعوة قاسم أمين، ومع ذلك لم يتعرض إسماعيل صبرى فى شعره، مرة، لقاسم أمين. ولا لدعوته ولم يرثه عندما مات !! وكانت تربطه بسعد زغلول علاقات غامضة !! فلم يهاجمه عندما كان وزيرًا فى وزارة مصطفى فهمى، وداعبه بتجريح بعدما تولى وزارة المعارف فى الوزارة التى أعقبت وزارة مصطفى فهمى..

ولما قامت ثورة ١٩ بزعامة سعد زغلول.. كان إسماعيل

صبرى قد سكت عن نظم الشعر تمامًا.. لا أحد يستطيع أن يعرف على وجه التحديد رأيه فى الثورة ولا فى الأحداث التى أعقبتها..

وكان صبرى يقول: أحب التوحيد فى ثلاثة: الله.. المبدأ.. والمرأة.. وأحب الحرية فى ثلاثة: حرية المرأة فى ظل زوجها، وحرية الرجل تحت راية الوطن، وحرية الوطن فى ظل الله.

وبرغم ترفع إسماعيل صبرى عن المهاترات، شارك فى هجاء الكاتب الكبير محمد المويلحى بعد ما صفعه أحد الأعيان على وجهه عام ١٩٠٢.. وكان ينشر قصائده الهجائية باسم مستعار.. وكانت جريدة المؤيد تنشر قصائد الشعراء ضد المويلحى.. بدافع الخصومة القائمة بين صاحبه على يوسف ومحمد المويلحى صاحب جريدة «مصباح الشرق»..

وتتجلى العذوبة فى الأشعار العاطفية التى نظمها صبرى.. يقول:

أترى أنت خاذلى ساعة التوديع ... ياقلب فى غد أم نصيرى
ويك! قل لى: متى أراك بجنبى ... راضيًا عن مكانك المهجور؟

ويقول :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنًا ... حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وقد تضمن ديوانه مساجلة بينه وبين إحدى الأديبات، ولم نستطع أن نعرف من هى هذه الأديبة.. إنها ليست الكاتبة «مى».. فلم تكن تنظم الشعر، وليست على ما نظن «باحثة البادية»..

تقول الأديبة المجهولة :

فديتك يا هاجرى ... فهل ترتضى بالفدا ؟
سهرت عليك الدجى ... ونمت ولكن سدى !!

ويقول لها صبرى :

أهاجرتى أطفئى ... لواعج لاتنتهى
مضت فى هواك السنون ... وما نلت ما أشتهى

وترد عليه :

زمانك قبلى انتهى ... ولا يرجع المنتهى
فحسبى أن أزدهى ... وحسبك أن تشتهى

وتحس المرارة فى أشعاره التى يتحدث فيها عن الموت يقول :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأر ... ض . . تنم آمنًا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ ... م التى خلفتك للأتعاب
لاتخف فالممات ليس بماح ... منك إلا ما تشتكى من عذاب
وحياة المرء اغتراب . فإن ما ... ت . . . فقد عاد سالما للتراب

وتلمس توجسه من الله خوفًا وهو يخاطبه قائلا :

يا عالم الأسرار حسبى محنة ... علمى بأنك عالم الأسرار

وقد اشتدت عليه وطأة المرض فزفر هذين البيتين :

يا موت هأنذا فخذ ما أبقت الأيام منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

وفى يوم ٢١ مارس من عام ١٩٢٣ خطا إليه الموت وأخذه . أخذه جسدًا . . وأعطانا روحه وذوقه وفنه . .

عندما غنى الشعب

الشارع يموج بالزحام والأنوار، وبأصوات متباينة يختلط فيها الزعيق والغناء والهتاف، وعزف الموسيقى.. وتسمع من خلال الأصوات المدوية أبواق السيارات ورنين أجراس بسكليت أو عربة «حنطور» خاصة، وفرقعة السياط فى أيدى سائق عربات الحنطور العامة... أحيانًا يلهبون بها ظهور الجياد وأحيانًا يلهبون بها ظهور الصبية المتعلقين بمؤخرة عرباتهم، وأحيانًا أخرى يلهبون الهواء بسياطهم ليشقوا لهم طريقًا للمرور!!

إن الجماهير فى هذا الشارع لا تمشى.. ولكنها تدور وتتجمع.. كل من فى الشارع يترنح.. الناس، المقاهى، الفنادق، دور السينما، الأضواء الملونة التى تغدقها المسارح والكباريهات على واجهاتها بكرم وحماقة..

إن الكلمات والقهقهات هى الأخرى تترنح. الذين يزعقون تخرج الكلمات من أفواههم مبتورة كالسيرة المعوجة..

أو السلوك السيئ، والذين يقهقهون تعلو قهقهاتهم وتهبط وتتقطع وتتمايل.. كسكران شرب زجاجة كاملة من خمر ردىء. !! والشارع يبدو كما لو كان متدثرًا فى غطاء.. فضاؤه تغطيه البالونات يمسك بخيوطها الصبيان والباعة الجائلون.. وجدرانه تغطيها إعلانات الملاهى وصور المطربات والراقصات والمطربين. النساء والفتيات والشبان والكهول غطوا الرصيف والطريق. أزياء الرجال متعددة الأشكال.. عمائم وطرابيش وقبعات وقفاطين.. وبذلات ومعاطف وجلابيب عادية وجلابيب من الصوف أو الحرير تولى حياكتها أشهر الخياطين.. النساء يرتدين الفستان أو الحبرة أو المعطف أو الملاءة اللف. أكثرهن سافرات الوجوه.. والأقلية منهن احتفظن باليشمك التركى، أو البرقع البلدى!

لا يوجد مقعد خال فى مسرح أو فى مقهى أو دار سينما أو كباريه، وعلى أبواب المقاهى يعرض الحواة ألعابهم العجيبة، يحشون صدورهم بالثعابين، ويأكلون النار، ويبلعون المسامير. وإلى جانبهم فرقة بمصاحبة البيانولا. بين أعضاء الفرقة من تخصص فى المشى على يديه، ومن تخصص فى حمل بقية أعضاء الفرقة فوق قدميه!! وعند أبواب الكباريهات

وقفت أكثر من غانية تعرض مفاتنها الرخيصة. وجه ملطخ بالأحمر والأبيض تحملق منه عين خائنة، وابتسامة وقحة، وذراعان تعرتا حتى الإبطين، وساقان عاريتان، وفستان قصير ضيق النطاق على الردفين، فتمرد الردفان على الفستان!! ومن ناحية.. تنطلق أغان وألحان ينشدها المطربون والمطربات فى المسرح، وترددها معهم الجماهير فى الشارع الكبير..

هكذا كان شارع عماد الدين مساء يوم ٣١ ديسمبر من عام ١٩٢٢، وكان صاحب هذه الألحان والأغانى يمشى فى الشارع ويستمع إلى الناس وهم يبدون إعجابهم به فيأخذه الزهو، وتتملكه نشوة النجاح.. لقد سبق زمنه فى الكشف عن حقيقة الأغنية، ووظيفتها، ومفهومها.. وسبق زمنه أيضًا فى الكشف عن مكانته وموهبته وعبقريته..

لقد أصبح صوت مصر.. صوت عاطفتها ومرحها وألمها ونضالها. إنه صاحب كل هذه الألحان التى تعبر عن الحب، والحزن، والأمل والتمرد على الظلم والاستغلال والاحتلال..

إنه الرجل الذى انفعل بآلام الشيالين والسقايين، وغنى فى وقت واحد «ضيعت مستقبل حياتى» و«شفتى بتاكلنى أنا

فى عرضك » و « فلفل فلفل اهرى يامهرى » و « زورونى كل سنة مرة » و « بلادى بلادى لك حبى وفؤادى » و « قوم يا مصرى مصر أمك بتناديك » و « اللى الأوطان بتجمعهم عمر الأديان ما تفرقهم » . .

إنه سيد درويش . . وكان فى هذا العام قد بلغ من عمره الثلاثين ، وبلغ فى فنه قمة المجد والشهرة . . إنه ابن كل شارع فى مصر . . واحد من غمار الناس عاش مشاعرهم وتجاوب معهم فجعل من فنه رئة يتنفسون بها . .

وهو فى هذا الشارع « شارع عماد الدين » سيده الأوحد . . فهذا شارع المسارح والملاهى . . وكل ملهى وكل مسرح يجرى وراء سيد درويش ليستأثر بإنتاجه الفنى فى الأغنية والأوبريت ، وهو يرفض العروض ويقبلها دون أن يعرف أحد لماذا يرفض ولماذا يقبل ؟ اتفق مع على الكسار ، ونجيب الريحانى ، ومنيرة المهدية . . لم ينشب خلاف بينه وبين الكسار . . ومع ذلك آثر عليه منيرة المهدية . . برغم اختلافه معها قبل اتفاقهما وبعد اتفاقهما . ولقد آثر نجيب الريحانى على الجميع مع أن حدة الخلاف بينه وبين الريحانى لم تهدأ منذ أن عرفه إلى أن ترك

الحياة.. فهو يحب الريحانى ويؤمن بأنه فنان عبقرى، ومن أجل ذلك.. غفر له مالم يغفره لعلى الكسار أو لمنيرة المهدية.. غفر له أن ينتقد بعض ألحانه!!.. وكان سيد درويش يتهاون فى أى شىء.. إلا فى المساس بلحن انتهى من صياغته...

كان يغار على تراثه الفنى أكثر من غيرته على حياته.. إنه يسمح لك أن تسرق ماله.. ولكنه يقتلك إذا حاولت أن تسرق ألحانه!!

ذات ليلة.. ذهب إلى مسرح الكسار وسمع أحد الألحان، ووجد اللحن مسروقًا منه فغادر صالة المسرح واتجه إلى الكواليس واستدعى مؤلف اللحن المسروق ورحب به المؤلف، وكان اسمه «إبراهيم فوزى» ومد ذراعيه فى الهواء ليحتضن الشيخ سيد درويش.. وإذا سيد درويش ينهال عليه بأقذع الشتائم ويهدده بالقتل إذا لم يقلع عن السطو على ألحانه..

وفى شارع عماد الدين فى ليلة رأس السنة، ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٢ سار سيد درويش ومعه أصدقاؤه.. زكريا أحمد وبديع خيرى ويونس القاضى، وكان فى طريقه إلى معهد

الموسيقى الشرقى. وسأله زكريا ماذا ستصنع هناك؟ وقال سيد درويش :

لقد اتصل بى مصطفى بك رضا ورجانى أن أنضم إلى المعهد وقال الشيخ زكريا . مصطفى بك رجل طيب ولكن . .

وقال الشيخ سيد : ماذا تعنى ؟

الشيخ زكريا : أعضاء المعهد لا يعترفون بموسيقاك ومصطفى رضا أيضًا لا يعترف بها . .

وصاح سيد درويش : إذن . . سأذهب إليهم وأتحداهم . .

الشيخ زكريا : سأجيء معك . .

الشيخ سيد : دعنى وحدى . .

وانطلق سيد درويش بأقصى سرعته حتى وصل إلى المعهد وحده ، وهناك استقبل المعهد لأول مرة شابًا رأسه متوسط الحجم ، وشعره مبعثر نافر غزير خشن ، متمرد على كل تسريحة . . جبهته عريضة ، وعيناه يمتزج فيهما الحنان بالقسوة والشهوة . . الأنف يبدو كما لو كان مضغوطًا ، والفم واسع رقيق مطبق ، والأذنان مرهفتان . .

وكان قوامه فارعًا طويلا ، عريض المنكبين ، رحب

الصدر، نصفه الأعلى يميل إلى البدانة وينتهى إلى بطن منتفخ.. أما النصف الثانى فكان نحيلا، وكانت ساقاه اللتان تحملان جسده أشبه بساق طائر، فهما رفيعتان نحيلتان..

ودخل الشيخ سيد مكتب مصطفى بك رضا.. فاستقبله مصطفى بك بالترحاب هو ومن معه، ودار الحديث عن الموسيقى وتطورها..

وقال مصطفى رضا: إذا كان التجديد هو تقليد الموسيقى الغربية.. فما أسهله!!

وثار الشيخ سيد ورد عليه: إننى لا أقلد أحدًا، إننى أعزف مشاعرى: أعبر عن انفعالى بأنغام لها وحدة وجود، وهدف.

وسأله مصطفى رضا: هل سمعت شيئًا من الموسيقى الغربية؟

وقال الشيخ سيد: سمعت..

وأخذ مصطفى رضا يعزف على القانون لحنًا من أوبريت «كارمن» للموسيقار (بيزيه).. وقال للشيخ سيد ما الفرق بين هذه الموسيقى وبين موسيقاك؟

فقال الشيخ سيد : هذه موسيق (بيزيه) أما موسيقاى فهى موسيق سيد درويش..

فضحك مصطفى رضا.. وفى هذه اللحظة كان الساعى يضع أمام الشيخ سيد فنجان قهوة، فتناول سيد درويش الفنجان بيده ورمى به فوق المائدة احتجاجًا على سخرية مصطفى رضا به.. وقعت القهوة الساخنة على ركبة فتى صغير كان يجلس بجوار مصطفى رضا فصرخ من الألم..

وكان هذا الفتى هو محمد عبد الوهاب!!

وغادر الشيخ سيد معهد الموسيقى الشرقى غاضبًا، وجرى خلفه محمد عبد الوهاب.. حتى لحق به وأخذ يسترضيه، وأقبل مصطفى رضا وحسن أنور وبعض أصدقاء المعهد ووقفوا مع الشيخ سيد، واعتذروا له، وعادوا به إلى المعهد، ليناقشوه فى هدوء..

ولم تجد المناقشة.. قال لهم الشيخ سيد : أنتم تعيشون فى الماضى وتنظرون إلى الوراء.. وأنا أعيش عصرى وأنظر إلى المستقبل..

وكانت الساعة قد أشرفت على العاشرة مساء، فاستأذن

الشيخ سيد فى الانصراف، وذهب، إلى مقهى فى ميدان الأوبرا ووجد الشيخ زكريا فى انتظاره، فقال له : قم بنا نذهب إلى مسرح الأوبرا لنسمع أوبريت «كارمن». ولما وصلا إلى باب المسرح.. وجدا المقاعد مشغولة كلها فعادا إلى المقهى.. وتلفت الشيخ زكريا فوجد سيد درويش يرهف أذنه وهو فى حالة إصغاء تام..

فسأله : ماذا تصنع ؟

فقال : أحاول أن أسمع.. ثم قال : آه.. هذه هى الموسيقى ! إن الموسيقى ليست موهبة فقط. إنها موهبة وعلم.. لابد من أن أتعلم الموسيقى.. سأسافر إلى إيطاليا فى العام القادم.. سأتلقى فن الموسيقى فى بلد الموسيقى وأساتذة الموسيقى.. وأخذ يبكى وينتحب..

وجذبه الشيخ زكريا من يده، وسارا معًا إلى بيت فى شارع محمد على كان يحلو للشيخ سيد درويش أن يمضى فيه سهرته..

إن سيد درويش شخصية فذة فى تفكيره وشعوره والتصاقه بأرضه، وتطلعه إلى التحليق فى آفاق عالية سامية.. إنه يبدو

فى تصرفاته وديعًا إلى حد الضعف.. قاسيًا إلى حد الضراوة!! وهو يألف الناس بلا سبب، وينفر منهم بلا سبب!! وربما كان مرجع ذلك إلى طبيعته «الميناثية»، فأبناء البلاد ذات الموانئ يقيمون علاقاتهم بالناس على أساس الشعور المفاجئ، لأنهم يعرفون الناس فجأة.. يفاجأون بهم وهم قادمون.. ويفاجأون وهم راحلون..

كان سيد درويش يميل بقلبه إلى صديق لا يستحق الصداقة!! ويهرب بقلبه وعقله من إنسان جدير بالصداقة!! إنه فى علاقاته مع الأصدقاء والصديقات.. لا يسير وراء المنطق ولكن يسير وراء الشعور..

ولقد خانه شعوره فى صداقاته وعلاقات حبه، فكان يصادق بلا تمييز، ويحب نساء تافهات بنهم وحرارة.. حتى إنه يهبهن قلبه وفنه أيضًا. ولقد انحرف بمزاجه فى تيار البيئة التى كان يربح فيها تفكيره ويرهق نزوته.. عرف الحشيش والكوكايين. وجميع ألوان الكحول.. ولكن هذا التيار لم ينل منه كإنسان يحب وطنه.. وكفنان يؤدى رسالته بفهم وإيمان..

إنه فى هذا العام ١٩٢٢ يرتدى البذلة كاملة، وقد علق

فى رقبته «بابيون»، ووضع فوق رأسه طربوشًا طويلا، ولكى ترى سيد درويش قبل هذه السنة.. اخلع بذلته، واضغط قامته قليلا، ثم دعه يرتدى الجبة والقفطان والعمامة ذات الشال الأبيض الملفوف حول طربوش أحمر.. لقد كان هكذا فى الإسكندرية والقاهرة بضع سنوات.. ولكن ماذا كان قبل ذلك؟ اخلع عنه الجبة والقفطان، ودع العمامة فوق رأسه وأبق على جلبابه الواسع وهو طالب فى المعهد الدينى بالإسكندرية.. حيث أمضى سنتين إحداهما فى المسجد العباسى والأخرى فى جامع الشوربجى..

ولكن ما لنا نتراجع مع حياة الشيخ سيد إلى الوراء تراجعًا متقطعًا؟ لماذا لا نسير معه منذ ولادته فى عام ١٨٩٢.. إلى أن مات فى عام ١٩٢٣..

تمت ولادة سيد درويش فى حى كوم الدكة بالإسكندرية. وكان أبوه نجارًا بسيطًا، وكان برغم فقره.. موضع احترام أهل الحى.. ومات الرجل الفقير وترك ابنه فى السابعة من عمره فكفلته أمه.. وكان إذ ذاك يتردّد على كتاب يحفظ فيه القرآن الكريم، ثم انتقل إلى مدرسة حسن حلاوة. ثم إلى



مدرسة شمس المدارس. . وكان بين مدرسى هاتين المدرستين الأستاذ سامى، وهو يهوى الموسيقى. . فانشأ فيهما فرقة للإنشاد وخص الشيخ سيد برعايته بعدما أدرك مواهبه الفنية الفطرية، وتولى الشيخ سيد قيادة الفرقة عندما كان طالبًا فى مدرسة حسن حلاوة وعندما صار طالبًا فى مدرسة شمس المدارس. .

ولم يقف سيد درويش عند حدّ ترديد الأناشيد المدرسية بل أخذ يحفظ أغانى الشيخ سلامة حجازى، وأدوار المطربين المشهورين فى تلك الأيام من أمثال محمد عثمان وعبده الحامولى وعبد الحى حلمى، وأتم حفظ القرآن وتجويده. وفى عام ١٩٠٥ قدم إلى المعهد الدينى فى الإسكندرية طلب التحاق بالمعهد نورد نصه عن كتاب «الموسيقار سيد درويش» لمؤلفه الأستاذ محمد إبراهيم، وقد سجل الكتاب طلب سيد درويش بالزنكوجراف كما يلى :

«عرضحال بتاريخ ٢٧ مارس سنة ١٩٠٥ حضرة شيخ علماء إسكندرية فضيلتو أفندم. . مقدمه لفضيلتكم سيد درويش البحر من أهالى إسكندرية ومقيم بكوم الدكة شياخة أحمد الضوى وما نعرض عنه أفندم. .

بحيث إنى مشتغل بحفظ القرآن الشريف وأروم من فضيلتكم بدرج اسمى مع الطلبة الموجودين تحت ريـاسة فضيلتكم، وعندى من العمر ١٣ سنة ثلاثة عشر، ومذهبى مالكى (وهنا حذف كلمة مالكى ووضع مكانها كلمة «حنفى») وإن قبلتم طلبى هذا أدعو لفضيلتكم بالعز والبقاء أفندم»..

وأصبح سيد درويش طالبًا بالمعهد، ووقع التعهد الذى يتحتم على الطالب الأزهرى توقيعه، وينص البند الخامس من هذا التعهد على أن يحافظ الطالب على شرف العلم والدين، وأن يسير سيرة مرضيه، وأن يتخلق بالأخلاق الكريمة. وأن يحافظ على جميع الواجبات المفروضة عليه بمقتضى الشريعة الإسلامية..

ومكث سيد درويش فى المعهد الدينى سنتين. لم يستطع خلالهما أن ينفذ أى بند من بنود التعهد المطلوب من المنتسبين إلى المعهد.. فقد أخذ يحفظ الألحان وينشد الأغانى ويسهر فى الحفلات التى يحييها المطربون والصبية والمقرئون المعروفون، كالشيخ أحمد ندا والشيخ حسن الأزهرى، بل إنه لم يستطع خلال هذين العامين أن يرتدى الجبة والقفطان. فقد كان لا

يملك ثمن الملابس الدينية.. وفى إحدى الليالى كان الشيخ حسن غميض يحيى حفلة، وأخذ يرتل التواشيح الدينية، وبعده وقف الشيخ سيد وأنشد بعض الموشحات والأغانى بطريقة استهوت الآذان، واستخف الطرب بالموجودين.. فجمعوا له نقطة اشترى بها عمامة وقفطانًا وجبة..

وكان هذا أول عهد الشيخ سيد بالزى الدينى، وآخر عهده بالمعهد الدينى.. فعقب ذلك قرر المعهد فصله لعدم مواظبته على حضور الدروس واشتغاله بقراءة الموالد فى الأفراح..

وقرر الشيخ سيد أن يحترف الغناء والإنشاد، ولكنه اصطدم بعقبات شديدة. كانت أغلبية الجماهير لا تستسيغ أداءه، وكم أقام حفلات، فلم تصادف أى إقبال من الجمهور..

وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره تزوج وصار مسئولا عن زوجته وأمه وطفله محمد البحر، فاشتغل فى فرقة «جورج دخول» المعروفة بفرقة «كامل الأصلى»، وكانت تعمل فى أحد المقاهى بكوم الناصورة، ولم ينجح فى عمله.. فترك الفرقة

وأخذ يطوف بالمقاهى ينشد الأغانى، وكان ما يجمعه طول الليل والنهار لا يزيد على بضعة قروش..

واضطر إلى أن يشتغل عامل بناء. فخلع عمامته وجبته وقفطانه وارتدى جلبابًا أبيض، وكان يعمل فى إحدى العمارات مناولا يصعد فوق السقالة ويناول البنائين المونة والبياض، وكان فى أثناء صعوده وهبوطه يرفع عقيرته بالغناء ويثير إعجاب العمال! وكان بجوار العمارة مقهى يتردد عليه. أمين عطا الله وسليم عطا الله. وهما من أشهر المشتغلين بالفن، فاسترعى انتباههما ما فى صوت هذا العامل الصغير من مزايا فنية، واتفقا معه على أن يصاحبهما فى رحلتهما إلى سوريا.. وألحقاه بفرقتهما عام ١٩٠٩، وقد أفاد سيد درويش من هذه الرحلة.. علمًا وثقافة وإلمامًا بالموسيقى الشرقية.. ولكنه أخفق فى عمله.. وفى عام ١٩١٢ سافر مرة أخرى إلى سوريا مع فرقة عطا الله، ونجح فى هذه المرة نجاحًا نسبيًا، ولما عاد إلى الإسكندرية بدأ يحدد اتجاهه الموسيقى ويتجه إلى المفهوم الصحيح للأغنية، وأخذ يصارع الظروف المادية والفنية بقوة وصلابة.. حتى ذاع اسمه وصار حديث الناس كفنان مجدد، وصاحب مدرسة فى الأغنية المصرية..

فى عام ١٩١٧ انتقل سيد درويش إلى القاهرة، ومنذ ذلك التاريخ.. وقف تحت الأضواء العالية. وما أشد خوفه من هذه الأضواء!.. إنها ستظهره على حقيقته، وقد ينفر الناس من هذه الحقيقة، وقد يقبلون عليها.. ولكن لابد من أن تظهر حقيقة سيد درويش.. إنه نفسه يريد ذلك.. كان فى هذا التاريخ قد اطمأن إلى موهبته وكان إنتاجه الفنى غزيرًا. كانت الفكرة تنبض فى رأسه وتخرج فورًا لأنها لا ترتطم بأفكار أخرى.. فإن موهبته أكثر من معلوماته..

وفى القاهرة.. لازم الشيخ سلامة حجازى، والتحق بفرقته، وغنى بين فصول المسرحيات، ولكن الجمهور انصرف عنه..

ولم ييأس سيد درويش من فنه.. بل لم ييأس من صوته.. كان يؤمن بأن فنه قيم، وأن صوته إذا لم يكن جميلا، فهو قادر على الأداء الصحيح وأجرى جراحة فى أنفه لاستئصال «اللحمية» ولكن صوته ظل كما كان قبل هذه الجراحة..

اتجه إلى التنويع فى الألحان.. إنه لا يلحن للحناجر

الجميلة.. إنه يلحن للشعب.. يريد من الشعب أن يغنى بجميع الأصوات ومن جميع الطبقات..

وانتشرت ألحانه على ألسنة الناس ودوت فى آذانهم، ومسّت مشاعرهم..

واهتدى سيد درويش إلى نفسه.. إنه يعبر عن مشاعره كإنسان.. ومشاعره كمواطن، فقد تمت ولادته بعد أن احتلت بريطانيا مصر بعشر سنوات، وكان يرى فى كوم الدكة طابية محطمة، وسأل عن تاريخها وعلم أن الإنجليز ضربوها بالمدافع عندما دخلوا الإسكندرية فى أثناء ثورة عرابى..

وعرف أن لبلده عدوًّا مقيمًا، وشعر بالنقمة على هذا العدو.. أراد أن يعبئ الشعور ضد العدو بالكلمة.. فوجد أروع الكلمات تنطلق من فم مصطفى كامل.. ثم من فم سعد زغلول،.. أراد أن يعبر بالصوت الحلو.. فوجد أحلى الأصوات تخرج من حناجر أخرى جميلة.. فاتجه إلى تنقية موسيقاه من البطء والفضول والتكرار، وحولها من وسيلة لتزجية الفراغ والانجذاب والتطريب.. إلى حافز يهزّ المشاعر ويلهب العواطف.. وهو يحدد مفهومه للألحان، ويحاول أن

يضع كتابًا عن الموسيقى، ويبدأ فى تأليف الكتاب، وينشر منه اربعة فصول فى مجلة النيل عام ١٩٢١، وفى رأيه أن الموسيقى اصوات متآلفة تحدث أنغامًا بوساطة اهتزازات تنجذب لها الأفئدة كما ينجذب الحديد للمغناطيس.. وكان يوقع هذه الفصول بإمضاء.. (خادم الموسيقى سيد درويش).

ظل سيد درويش موضع اهتمام مصر والعالم العربى طيلة السنوات الخمس التى سبقت وفاته، ثم أصبح مادة وموضوعًا عقب وفاته. وقد سمعت عن سيرته الفنية وسيرته الشخصية قصصًا كاملة من شاعرنا الخالد أحمد شوقى، وحدثنى عنه عندما لحن له سيد درويش النشيد القومى: (بنى مصر مكانكمو تهيًا).

وسمعت مئات القصص من بيرم التونسى، وزكريا أحمد، ومحمد عبدالوهاب، واطلعت على ما نشرته الصحف عنه من آراء النقاد والأدباء.. أمثال الأستاذ الكبير عباس العقاد، والدكتور حسين فوزى، والأستاذ محمد على حماد، وقرأت كتابين عن سيد درويش.. أحدهما للأستاذ محمد إبراهيم، والآخر للأستاذ محمد محمود دوارة. وكل ما قرأته وما سمعته

لم يهزنى كما هزنى أن سيد درويش.. الذى صنع أكثر من مائتى لحن وأوبريت مات فى الثلاثين من عمره!

وفى شهر سبتمبر من عام ١٩٢٣ أعد سيد درويش نشيدًا وطنيًّا ليغنيه مع المجموعة فى حفل استقبال الزعيم سعد زغلول لمناسبة عودته من الخارج، وسافر سيد درويش إلى الإسكندرية، وأقام مع شقيقته فى حى محرم بك، وفى اليوم المحدد للاحتفال وهو يوم ١٥ سبتمبر. كانت المجموعة قد حفظت النشيد فى الصباح وانتظرت سيد درويش.. ولكنه لم يحضر. ولم يعجب أحد لذلك.. فقد كان الشيخ سيد لا يلتزم بأى موعد!!

وظهر سعد زغلول فى الاحتفالات وعزفت المجموعة نشيد: «بلادى بلادى لك حبى وفؤادى» ورددت الجماهير هذا النشيد بقوة وحماسة، وأبدى سعد زغلول إعجابه باللحن الشعبى العظيم وسأل من الذى وضع هذا اللحن؟

وقيل له: سيد درويش

فقال: أين هو لأحييه؟

وقيل لسعد زغلول: لقد مات..

.. اليوم مات سيد درويش!!

مسرحيات شوقى
وهل هى لشوقى؟؟

هل مسرحيات شاعرنا الخالد أحمد شوقى من صنعه وحده ؟

إن شعر المسرحيات من نظم شوقى.. فلا أحد سواه يستطيع أن يصل إلى هذه القمة العالية فى جزالة الأسلوب، ووضوح المعنى، وفخامة الكلمة، وموسيقية التعبير.

ولكن البناء المسرحى لهذا الشعر من الذى أقامه؟.. هل أقامه شوقى وحده، أو أنه استعان بمهندس؟

لقد استعان شوقى فعلا فى بناء مسرحياته بمهندس فنى!

وهذا المهندس ليس شاعرًا، ولا ممثلا، ولا مخرجًا مسرحيًا.. ولكنه طبيب.. هوايته الشعر والمسرح.. وقبل أن أذيع اسم المهندس الفنى لمسرحيات شوقى، أبادر وأذكر أن تصميم المسرحيات وأساسها وفكرتها، ومادتها الشعرية.. قام بها شوقى..

وكل ما صنعه المهندس هو أنه أعاد النظر فى الحوار، وفى ترتيب الفصول، وتولى تنسيق الإطار الفنى الذى ظهرت فيه المسرحيات..

وقد نجحت المسرحيات بقوة الشعر.. وقدرة الممثلين على الأداء، ولكنها لم تنجح فنيًا، ولقد أجمع النقاد على أن شعر شوقى فى القمة، وأن البناء المسرحى يحتاج إلى تعديل قد يتطلب التصرف فى هذا الشعر البديع.. فأين الشاعر الذى يستطيع أن يصل إلى قمة شوقى؟

وإذا وجدنا ذلك الشاعر، فكيف يمكن أن نتصرف فى شعر شوقى بالحذف أو الإضافة، دون أن ترتكب جريمة فى حق التاريخ؟

لست من هذا الرأى، ولكننى غير بعيد عنه. فأنا ارى أن تعديل مسرحيات شوقى لا يتنافى مع الأمانة التاريخية، إذا اقتصر التعديل على الحذف، ولم يتناول إضافة شعر آخر إلى شعر شوقى. ربما قيل إن التعديل الفنى قد يحتم وضع شعر جديد يقتضيه الجو والملاءمة والسياق.. فماذا نصنع..؟.

إذا اصطدمنا بهذه العقبة، فمن الممكن تذليلها، بوضع

كلمات غير منظومة، وبذلك تكون الكلمات حركة إخراجية مكتوبة أشبه بحركات الإخراج على المسرح..

كان شوقي ينقد مسرحياته. ويعيد النظر فيها، وكلما شهد مسرحية أجرى عليها تعديلا. وقد عرفته فى أخريات حياته، وحضرت معه مسرحية (مصرع كليوباترا)، وكنت أحفظ أشعاره، وفى إحدى الجلسات أبديت له ملاحظة على الحوار الذى دار بين أنوبيس وكليوباترا.. جو الموقف يقتضى أن يهون أنوبيس من خطر الموت، حتى يغرى كليوباترا أن تنتحر دون أن تخاف.. كانت تسأله ماذا سيفعل الموت بها.. وما هو الموت ؟

تقول له : وما الموت ؟

أنوبيس : ماذا أقول !

كليوباترا ـ تمثله لى كأن قد حضر..

أنوبيس :

زعمت ابنتى الموت شخصًا يحس وعظمت من أمره ما صغر.

ويستطرد فيقول :

وما هو إلا انطفاء الحياة وعصف الردى بسراج العمر

وقلت لشوقي إن هذا ليس تهوينًا من شأن الموت، ولكنه تجسيم لرهبته..

فأطرق شوقي وقال: لو أبديت هذه الملاحظة قبل طبع المسرحية.. لحذفته منها.

وقلت له: عندي اقتراح.

فقال: ما هو؟

قلت: يبقى هذا البيت على لسان كليوباترا.. وبدلا من أن يكون البيت:

وما هو إلا انطفاء الحياة   وعصف الردى بسراج العمر

يصبح البيت هكذا:

وهل هو إلا انطفاء الحياة   وعصف الردى بسراج العمر

فقال شوقي: إن هذا يقتضي أن يجري البيت التالي على لسان كليوباترا وليس على لسان أنوبيس، ويمكن تعديله على هذا النحو:

أليست له صورة في العيون   على قبح صورته في الفكر

فيقول أنوبيس:

وليست له صور في العيون   على قبح صورته في الفكر

إذا جاء كان بغيض الوجود وإن جيء كان حبيب الصور

وسجل شوقى هذه الملاحظة فى ورقة صغيرة، وقال إنه سينفذها فى الطبعة الجديدة لمصرع كليوباترا. ويظهر أن الورقة التى دون فيها شوقى ملاحظته ضاعت منه، فقد صدرت بعد وفاته عدة طبعات لمصرع كليوباترا، ولكنها خلت من التعديل الذى اقتنع به شوقى.

ضربت هذا المثل.. لأبين حرص شوقى على الكمال الفنى، فالفن انتقاء، وحذف، وإضافة.. والانتقاء، والحذف والإضافة، لا ينبغى أن يتولاها إلا الفنان نفسه.. ولكن إذا ذهب الفنان وكانت آثاره تحتاج إلى انتقاء، وحذف وإضافة، فهل تهمل هذه الآثار؟ هل نتركها تخفق؟ أو أن الفن يقتضينا إجراء تعديل لها؟

أعتقد أن هذا السؤال يحمل الجواب الصحيح، وهو ألا نتردد فى إجراء أى تعديل لا يمس جوهر العمل الفنى، وما أنادى به بالنسبة لمسرحيات شوقى.. حدث بالنسة إلى مسرحيات شكسبير، وحدث بالنسبة إلى بعض ألحان سيد درويش.. فإن أغنية (زوروى كل سنة مرة) التى تغنيها فيروز

فى الإطار الذى رسمه لها أخوان رحبانى قد بلغت من النجاح الفنى ما لم تبلغه وهى فى إطارها الذى وضعه سيد درويش نفسه.

وهذا لا يغض من قدرة سيد درويش.. بل يرفع قدره، ويثبت أن المعدن الفنى الأصيل، إذا تشكل فى أى قالب لا يفقد قيمته ولكن يزداد جمالا.

بقى أن تعرفوا المهندس لمسرحيات شوقى.. إنه الدكتور سعيد عبده.. ويمكن أن نستعين به فى تعديل مسرحيات شوقى، إذا ما وجدنا بين المشتغلين بالمسرح من يجرؤ على وضع هذه المسرحيات فى إطار يجعل قيمتها الفنية تتلاءم مع قيمتها الشعرية.

وطنية شوقى

زارنى أحد خريجى كلية الآداب ودارت بيننا مناقشة حول وطنية شاعرنا الخالد أحمد شوقى.. وقال لى إنه يعد رسالة عن الشعراء الوطنيين فى الخمسين سنة الماضية، وإنه لم يجد

لشوقى قصيدة واحدة تدل على وطنيتـه، وتجاوبه مع مشـاعر الشعب.

وقلت للزائر الأديب: هل درست شوقى دراسة تستطيع معها أن تحكم على وطنيته؟

فقال: لقد كان شوقى مخالفًا للحركة الوطنية التى تزعمها مصطفى كامل.. كان فى جانب.. والشعراء كلهم فى جانب!

ولم يسمح إلا أن أقاطعه وأنبهه إلى عجزه عن فهم العصر الذى عاش فيه شوقى، وكيف أن شوقى على الرغم من انتمائه للقصر، كان ينفعل بمشاعر الشعب، ويعبر عن الاتجاه الوطنى فى كثير من المواقف.

وسألنى: أين قصيدة شوقى فى حادث دنشواى؟.. أين شوقى من حافظ؟

وقلت: إن حافظا هجا إبراهيم الهلباوى.. المدعى العام، ولم يهج القضاة المصريين الذين اشتركوا فى إصدار الحكم الجائر..

وقال: وهل هجا شوقى هؤلاء القضاة؟

وحكيت له القصة التاريخية المعروفة.. وهى أنه عقب

صدور الحكم فى مأساة دنشواى عام ١٩٠٦ صدر أمر بترقية أحمد فتحى زغلول.. إلى منصب وكيل وزارة العدل.. وكان أحد قضاة المحكمة الظالمة، وأقيمت له حفلة تكريم فى فندق شبرد، ودعى شوقى إلى الحفلة.. فأرسل إلى المشرفين عليها هذه الأبيات:

إذا ما جمعتم أمركم وهممتمو بتقديم شىء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة وسروال مجلود.. وقيد سجين
ولاتعرضوا شعرى عليه فحسبه من الشعر.. حكم خطه بيمين
ولاتقرءوه فى «شبرد» بل اقرءوا على ملأ فى دنشواى حزين!

شوقى وحافظ

أعتقد أنى كنت واضحًا.. عندما تكلمت عن موقف شوقى وحافظ من حادث دنشواى، فقد سجلت أن حافظًا لم يتعرض فى قصيدته للقضاة المصريين، وصب لعناته على إبراهيم الهلباوى المدعى العام، وأن شوقيًا هاجم القاضى المصرى أحمد فتحى زغلول وقال فيه أبياتًا تنبض بالازدراء والمرارة..

ولم أقصد بذلك.. إلا أن أصحح ما رسب فى الأذهان عن وطنية شوقى، فقد كان برغم وضعه من القصر، يعبر عن آمال الشعب وآلامه، وكانت ظروف وظيفته تقتضيه أن يستعمل الدبلوماسية والكياسة حتى لايحرج نفسه مع القصر، ولا يحرج القصر معه، وكان معروفًا عنه أنه يكره الإنجليز والاحتلال، ويشايع الحزب الوطنى.

وكان للوطنية فى تلك الأيام أكثر من مفهوم.. هناك من جاهر بمقاومة الاحتلال والتمسك بالولاء لآل عثمان، وهناك من دعا إلى التخلص من سيطرة آل عثمان والتفاهم مع الإنجليز على الجلاء.. وهناك من تمرد على الاحتلال والقصر معًا.. ونادى بالاستقلال التام.

وكان شوقى يكفر بالاحتلال، ويؤمن بالخلافة، وكذلك كان الحزب الوطنى يومًا ما..

وبعدما عاد شوقى من المنفى، ناصر الحركة الوطنية الشعبية التى انبعثت من انتفاضة ١٩١٩ برياسة سعد زغلول، ولكنه كان غير متحزب فى مناصرته للحركة، وكان يبث آراءه ونصائحه بدبلوماسية وكياسة.. كان ضد طغيان الأقلية، وضد

طغيان الأكثرية.. ولم يقع حادث فى بلادنا، أو خارج بلادنا، دون أن يسجله..

وقد تلقيت من الأستاذ محمد الغزالى حرب كلمة أشار فيها إلى وطنية شوقى، وأنكر الأبيات التى أوردتها فى يومياتى، وقلت إن شوقى قالها بمناسبة حفل تكريم فتحى زغلول..

وقال إنه يحفظ هذه الأبيات ولا يعرف أنها لشوقى، وإنه بحث عنها فى الشوقيات فلم يجدها.. ويخشى على ذاكرتى أن تكون قد خانتنى..

وأبادر فأذكر.. أن الأبيات الأربعة نشرتها الصحف الوطنية فى نشرها، ونسبتها إلى شوقى عام ١٩٠٦، وقد نقلها المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى من الصحف، وسجلها فى كتابه «شعراء الوطنية» صفحة ٧٩.

ويستطرد الأستاذ الغزالى فيسجل على شوقى أنه قال قصيدته فى دنشواى بعد وقوع الحادث بعام.. ثم يسجل لشوقى أنه ليس أقل وطنية من حافظ وأن ما يؤخذ على حافظ أفدح بكثير مما يؤخذ على شوقى، ويعزز رأيه بأبيات كثيرة للشاعرين.

وقد نقل من شعر حافظ بعض ما نظمه فى الإشادة بعدل بريطانيا، وكيف كان حافظ يودع المندوب السامى القديم.. ويستقبل المندوب السامى الجديد.. ويمجد العرش البريطانى ويقول مخاطبًا الإنجليز:

أنتم أطباء الشعوب وأنبل الأقوام غاية

أنى حللتم فى البلاد لكم من الإصلاح غاية

ثم قارن بين قصيدة حافظ فى وداع كرومر، وقصيدة شوقى فى دنشواى بعد سفر كرومر.. وذكر أن حافظًا قال لكرومر:

سنطرى أياديك التى قد أفضتها علينا، فلسنا أمة تجحد البدا

وكنت رحيم القلب تحمى ضعيفنا وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا

فى حين يقول شوقى:

نيرون لو أدركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الأحكام

ولشوقى قصيدة مشهورة فى وداع كرومر.. وفيها يقول:

لما رحلت من البلاد تشهدت فكأنك الداء العياء وبيلا

وأذكر هنا للتاريخ أن شوقيا نشر هذه القصيدة فى الصحف بدون توقيع، وبعد ذلك سجلها فى الشوقيات.

وأعود للأستاذ الغزالى، لأقتبس من مقاله هذه الفقرة:

« لاينبغى لأحد أن يسأل فى مجال الوطنية : أين شوقى من حافظ بل يجب أن يكون السؤال هو : أين حافظ من شوقى ؟! »

ولاشك أن فيما قاله الأستاذ الغزالى مغالاة.. فكلا الشاعرين شوقى وحافظ له كثير نحسبه له، وكثير نحسبه عليه.

ذكريات عن الشاعر الخالد
فى يوم ذكراه

مرت ذكرى شوقى هذا العام فى هدوء، فلم تحتفل بذكراه هيئة أدبية فنية، ولم تظهر عنه دراسة جديدة.

كل ما حدث أن التليفزيون أذاع برنامجا عن شوقى، أعده الأستاذ محمد على حماد.. واشترك فيه ابن شوقى الأستاذ حسين شوقى والدكتور سعيد عبده وأم كلثوم وعبد الوهاب، وهو برنامج يتسم بالوفاء أكثر من أى شىء آخر.

ولكن هل معنى ذلك أن يد النسيان بدأت تمتد إلى اسم الشاعر الخالد، لتمحو منه بعض النقط، أو بعض الحروف ؟

كلا.. فقد ظللنا عدة أعوام لا نحتفل بذكرى شوقى على المستوى الذى يليق به.. ثم احتفلنا ـ شعبًا ودولة ـ بهذه الذكرى فى مؤتمر استمر أيامًا، وساهم فى المؤتمر ممثلو البلاد العربية، وكتب النقاد والمختصون دراسات جادة عن الشاعر الذى تفجرت موهبته منذ سبعين عامًا.. بشعر اختلف النقاد على شكله، ولكنهم أجمعوا على أصالة جوهره..

وجاء الزمن، فأثبت أن الشعر الصحيح لا يموت.. أيًّا كان إطاره وقالبه.

وقد لاقى شوقى فى حياته هجومًا عنيفًا من خصومه. بعض هؤلاء الخصوم يحملون على شخصه، ولم يكن يحفل بهم. وبعضهم الآخر كان يحمل على طريقته وأسلوبه، وقد اهتم بهم، ولكنه لم يتول الرد عليهم، كان يرى أن الشاعر هو الشعر. فهل يستطيع أن يفسر نفسه بنفسه؟ هل يستطيع إذا سئل ما هو؟.. أن يجيب ماهو؟

إن الشعر، والموسيقى، والنحت، والرسم، وكل الآثار الفنية مثل مفاتن الطبيعة.. لا ينبغى أن نسألها عن سر فتنتها.. فالجواب ليس عندها، ولكن عندنا نحن الذين أخذتنا

فتنتها وعبرنا عنها، بقصيدة أو لحن، أو تمثال، أو لوحة..

وفى المهرجان الذى بايعه فيه شعراء العرب بإمارة الشعر، قال شوقى يحيى من بايعوه:

إنما أظهروا يد الله عندى وأذاعوا الجميل من إحسانه
ماالرحيق الذى يذوقون من كرمى .. وإن عشت طائفًا بدنانه
وهوى الحمام.. لذة سجع أين فضل الحمام فى تحنانه؟
وتر فى اللهاة ما للمعنى من يد فى صفائه وليانه؟

إن شوقيا فى هذه الأبيات يرى أن الفن موهبة، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال.

هل تستطيع الموهبة وحدها أن تخلق عملا فنيًا كاملا؟

فى رأيى أن الموهبة التى لا يصقلها العلم، والثقافة والدراسه.. قد تنطلق منها شرارة تلفت النظر. ولكن لا تندلع منها نار تثير الفكر. وقد كان شوقى موهبة صقلتها ثقافات متعددة، شملت السياسة والتاريخ، والقانون، والآداب العالمية، والفنون، والأديان، وأصول اللغة..

وإذا شبهنا الموهبة ببئر البترول، فإن الثقافة هى معامل تكرير البترول، وبغير هذا التكرير لا يمكن أن نستغل البترول

فى تسيير الطيارات، والسيارات.

وقد حلقت طائرة شوقى بموهبته التى صقلها بالثقافة.. سارت ببتروله الذى كرره بالعلم والمعرفة..

وكان شوقى يؤمن كما قلنا بأن الشعر هو الشاعر، والشعر لا يستطيع طبعًا أن يرد على ناقديه، وكذلك الشاعر لا ينبغى أن يفسر أعماله، أو يدافع عنها.. فهذه مهمة الناقد..

ولكن شوقى على الرغم من إيمانه بذلك.. كان يضيق بهجوم النقاد، وكان يعبر عن ضيقه بأبيات يبثها بين قصائد لا تمت إلى النقد بأية صلة..

كان الأستاذان الكبيران عباس العقاد وإبراهيم المازنى قد أصدرا أول جزء من كتابهما الديوان، وفى هذا الجزء تناول العقاد قيمة شوقى.. وهل هو شاعر خالق، أو أنه شاعر ينسج على منوال غيره من الشعراء القدامى، فهو يستخدم النماذج السابقة، والقوالب القديمة، وما يتجلى فى شعره من بريق، ليس مبعثه شاعرية أصيلة، وإنما مبعثه ممارسة النظم فترة طويلة من الزمن..

وثار شوقى، وثار له كثيرون من الكتاب وردوا على

العقاد، ولكن ردودهم لم تتضمن أكثر من كيل السباب للعقاد والمدرسة الحديثة، وإحراق البخور حول شوقى.. كانوا يشيدون بشوقى ويسبون العقاد، وكان العقاد يدافع عن الشعر الحديث ويسب شوقى عن علم، وعن تعصب أيضًا..

وفى هذه الأثناء نظم شوقى قصيدة استقبل بها أم الخديو عباس، وكانت ممنوعة من دخول مصر، وأذن لها الملك فؤاد بالدخول لدفن حفيدها، ومنعت الحكومة الناس من استقبالها، ومنعتهم من تشييع الجنازة.

وتحمس شوقى لاستقبال أم الخديو، وهاجم الذين منعوا الجمهور من استقبالها وقال:

برئ الرفق من السيف الذى منع الأم ملاقاة البنين
أقبلى كالشمس لم تجعل لها موكبًا. أو تتخذ من حاشرين
أقبلى فى بحرك الطامى إذا عبث السيف بموج المحتفين

ثم قال يخاطب أم الخديو:

لا ترومى غير شعرى موكبًا إن شعرى درجات الخالدين
آب من قيمتك الدهر كما رجع النقد من الشعر الرصين!

وهو فى هذين البيتين إنما أراد أن يرد على من هاجموه..

وفى ذكرى الصحفى الوطنى الكبير أمين الرافعى، أعد شوقى قصيدة.

وكان أستاذنا الدكتور محمد حسين هيكل رئيسًا للجنة الاحتفال، وهو صديق لشوقى، وقد كتب مقدمة ديوانه، وأشاد بشاعريته. ثم حدثت بينهما جفوة شديدة، وليس هنا مجال الكشف عن أسبابها..

ورأى الدكتور هيكل أن يحتجز القصيدة إلى نهاية الحفلة حتى يربط الجمهور. وكانت الحفلة فى دار الأوبرا، وقد تحددت لنهايتها الساعة الثامنة مساء، وقبل هذا الموعد، نهض الدكتور هيكل وأعلن أن الوقت لا يتسع لإلقاء قصيدة الشاعر أحمد شوقى بك.. وأن اللجنة رأت أن تكتفى بنشرها فى الصحف.

وعرف شوقى النبأ، وكان معتكفًا فى داره.. واعتقد أن الدكتور هيكل أساء النية لسببين: هما أنه أرجأ إلقاء القصيدة إلى آخر البرنامج، أما السبب الآخر فهو أنه لم يطلق عليه لقب أمير الشعراء واكتفى بأن خلع عليه وصف الشاعر فقط..

وغادر شوقى داره، وطاف بالصحف التى أعدت القصيدة للنشر، وأضاف إلى قصيدته هذين البيتين :

إن يفت أمس منبر القول شعرى   إن لى المنبر الذى لن يزولا
حل عن منشد سوى الدهر   يلقيه على الغابرين جيلا فجيلا

لاأريد بهذه الكلمات أن أحيى شوقيا ولكن أريد فقط أن أضع على قبره زهرة صغيرة فى يوم ذكراه.

شاعرنا الخالد..
فى حديقة الخالدين

ما أكثر الذين خطر لهم أن شاعرنا الخالد، لم يكن يتصور، أنه بمرور أكثر من ثلاثين عامًا على وفاته، سيتحدث الناس عنه، كما لو كان حيًّا، فيناقشون آراءه، وأسلوبه الفنى، وسلوكه الاجتماعى.. هل كان شجاعًا؟ هل كان جبانًا؟ هل كان مع الشعب؟ هل كان مع الملوك الذين ولدته أمه وهى وصيفة فى قصورهم؟ هل كان يتملق الطغاة؟ ما قيمته كشاعر؟ هل له شخصية منفردة؟ أهو فنان خالق، أم أنه صانع يتقن صناعة الشعر؟؟

وقد أجاب المؤمنون بالشاعر عن هذه الأسئلة، وأصروا على أنه قمة. ولكن الإيمان، مثل الحب، يتدخل فى الآراء.. فيضفى عليها ما يثير الظنون!

أما الزمن، فهو وحده، القاضى الذى يفرض حكمه على القيم، ولا حيلة لأحد فى أن ينقض هذا الحكم أو يلغيه!

ولقد حكم الزمن لشاعرنا العظيم أحمد شوقى، وفرض عبقريته وخلوده، وجعله حتى يومنا هذا، إنسانًا حيًّا يتحرك، ويتلفت ويتكلم، وينبرى له النقاد، ويناقشون حركاته، والتفاتاته، وكلماته، كما لو كان يعيش معهم، ويعيشون معه!

وبالأمس القريب تجدد الحديث عن شوقى، وتناثرت أسئلة أخرى حوله: هل كان شوقى يظن أنه سيأتى اليوم الذى يقام له فيه تمثال خارج بلاده؟ وأين؟ فى روما!! فى حديقة الخالدين!!

والذين عرفوا شوقى، ولو من خلال أشعاره، يستطيعون أن يقولوا، دون أن يتجاوزوا الحقيقة إن شوقى كان يحس فى أعماقه، أن التقدير الكبير الذى لقيه وهو حىّ، سوف يتضاعف بعدما ينتقل إلى العالم المجهول.. ربما لم يدر فى

خياله، أن روما ستسبق مصر إلى إقامة تمثال لـه. ولـكن الشيء الذى كان على يقين منه.. هـو أن وطنـه سيقيم لـه التماثيل فى الحدائق والميادين، بعدما يتحـرر مـن جسـده، ولا يبق منه إلا الروح والشعر والفن!

ولكن الذى حدث أن إيطاليا سبقتنا إلى تـكريم العبقـرية العربية، فقررت أن تضع تمثال شـوقى فى حـديقة الخـالدين بروما، إلى جانب تماثيل عباقرة العالم. وأقـامت لهـذه المنـاسبة احتفالا رسميًا، حضره وزير الثقـافة الإيـطالى، وعمـدة رومـا، والفنانون، والعلماء، والشعراء ورجال سـفارتنا، وعشرات مـن مختلف البلاد العربية، بينهـم الفنـان المصرى العـربى جمـال السحينى صانع التمثال، وتـولى الـوزير المصرى العـربى ثـروت عكاشة إزاحة الستار عن تمثال العبقرية المصرية العربية.. أمير شعراء العرب.. وشاعر الإنسـانية.. الـذى انفعـل بحضـارتها ومفاتنها ومآسيها. وكان شعره صدى لـلأحداث الـتى شـهدها بنفسه أو عاشها فى التاريخ.

ولقد كرمـت مصر شـاعرها الأكبر بـأساليب مختلفـة، فأطلقت اسمه على الشوارع، ووضعت جـوائز تشـجيعية بـاسم

أمير الشعراء، واحتفلت بذكراه، وأصدرت عدة دراسات عنه، وقررت إقامة أربعة تماثيل له.. أحدها فى الجيزة، والثانى فى الإسكندرية، والثالث فى مبنى مجلس الفنون الأعلى، والرابع فى مدخل دار الأوبرا الجديدة، التى سيتم بناؤها فى الحديقة المقابلة لحديقة الأندلس بجوار قصر النيل[1].

وشوقى لم يستمد مكانته الخالدة من أنه كان شاعر الأمراء، أو أمير الشعراء.. وإنما استمد هذه المكانة لأنه كان شاعرًا حقًّا، امتاز بموهبة صقلتها ثقافة متعددة الجوانب، وعقلية متفتحة، واعية، وفن أصيل ينبض بالحياة.. والإنسانية، وتنبض فيه الحياة.. والإنسانية.

والأشكال ما هى إلا زخارف وألوان، وإنما الشاعر.. هو من تحس أنه خلق جوهرًا، أو حقيقة، أو جوًّا، فإذا ارتبط هذا الخلق، بالشكل الذى يلائمه ارتباطًا موسيقيًّا، فى عمل واحد متكامل أو محاولة جديدة لم تتم.. كان الشاعر جديرًا بالبقاء.

وشوقى، مثل أى فنان، بدأ بمحاكاة غيره، وعاش فترة

(١) كان هذا قبل حريق دار الأوبرا القديمة وتعزيز بناء الدار الجديدة مكانها.

طويلة يستعمل الديباجة التى استعملها من سبقوه من الشعراء، وكان يجاريهم، فيلحق بهم، ويسبقهم، ويتخلف عنهم، ثم عثر على نفسه، فصار حرًّا له شخصية فنية فذة، خلقت فى الشعر العربى، جوهرًا، وحقيقة، وجوًّا. فشوقى عالج أحداث التاريخ بأسلوب جديد ساحر، وصنع لوحات وتماثيل رائعة لآثار قدماء المصريين، ووضع أول محاولة جادة للمسرحية الشعرية فى الأدب العربى.

ولم يكن مجرد شاعر، ينسق الجملة تنسيقًا موسيقيًّا. ولكن كان له إلهام، وهذا هو الفرق بين الشعر الصحيح، والشعر الزائف، فالشاعر الملهم يعتقد أن انفعالاته الذهنية والنفسية إنما هى وحى من قوة ذات قداسة، وليس من حقه أن يتصرف فى التعبير عن هذا الوحى، فيضع كلمة غير الكلمة التى يجب أن يعبر بها عن الوحى، ولو كانت الكلمتان متشابهتين، بل يجب عليه أن يقول الكلمة ولو كلفه ذلك أن يعانى من الألم، والإرهاق، والعذاب، ما يفوق طاقته. وقد رأيت شوقيا وهو يسجل خواطره . . كان يخيل إلىّ أنه مجنون، أصيب بغتة بنوبة صرع. . كان يجلس بيننا، ثم يقفز من مكانه إلى مكان آخر، ويخرج من جيب سترته علبة السجائر

ويكتب فيها كلمات. ويعود إلينا أو نلحق به، والعرق يتصبب من جبهته.. وعيناه مغرورقتان فى لمعان أشبه بالدموع، وأنفاسه لاهثة!

وكانت هذه الحالة تنتابه طيلة معاناته نظم إحدى قصائده. فإذا فرغ مس تسجيل خواطره ساعة بساعة، ويومًا بعد يوم، وضع رأسه بين كفيه وأملى القصيدة كاملة على أحد المقربين إليه. ثم عاد إلى مراجعة الأوراق والقصاصات التى سبق أن سحل فيها خواطر القصيدة.. فإذا ما أملاه عن ذاكرته لا يكاد يختلف عما سجله فى بضعة أيام متفرقة، إلا فى كلمة، أو كلمتين! وقد كان شوقى مؤمنًا بأنه شاعر أعماق وجذور، وكان مع ذلك يفزع من مهاجمة النقاد له. وكثيرًا ما سئل: لماذا تخاف حملات النقد.. فكان يقول: إنه فنان، والفنان يسعده أن يقتنع جيله بعمله.. فإذا ما استمرت حملات النقد، فقد يتأثر بها أبناء الجيل، ويصرفون عن الفنان وهو حىّ، ولا يقبلون عليه إلا بعد ما يموت!

كان يؤمن بأنه سيعيش بشعره.. سيعيش آلاف السنين، ولم يكن يخفى هذا الإيمان، بل لعله عبر عنه عشرات المرات فى عدة قصائد:

فعندما رثى الزعيم الوطنى مصطفى كامل قال :

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هـوت　　فتعود سيرتها إلى الدوران ! !

ولما منعت السلطات استقبال أم الخديو عباس بعد خلعه عن العرش قال يخاطبها :

لا ترومى غير شعرى مـوكبًا　　إن شعرى درجات الخالدين
كل حمـد لم أصـغه زائـــل　　خالد الحمد بما صـغت رهـين

هذه خواطر عن شوقى. . الذى احتفلت إيطاليا بإزاحة الستار عن تمثاله فى حديقة الخالدين. وأنا بهذه الكلمة أحاول أن ألقى بعض الضوء عليه، ولكنى أحاول من خلال خواطرى أن أرى تمثاله القائم هناك فى روما. . تحف به تماثيل زملائه من عباقرة الفكر، والفن.

مؤلفات شوقى

تلقيت من الأستاذ الدكتور محمـد صـبرى كلمـة عـن مؤلفات الشاعر الخالد أحمد شوقى، وكان أحـد القـراء قـد سألنى عن آثار شوقى، فأحلته على الدكتور صبرى، وهذه هى الكلمة :

الشوقيات : صدر الجزء الأول طبعة قديمة سنة ١٨٩٨. ويشتمل على مقدمة لشوقى وقصائد من ١٨٨٨ إلى ١٨٩٨.

والواقع أنه يضم قصائد من ٨٨ إلى ٨٩ كما أن تاريخ صدوره الحقيق فى مارس ١٩٠٠. وقد أعيد طبع هذا الجزء بنصه دون أى تعديل أو إضافة سنة ١٩٣٠ وفى أكتوبر سنة ١٩٣٢ مات شوقى.

وفى سنة ١٩٣٦ صدر الجزء الثالث (المراثى). وفى سنة ١٩٤٣ صدر الجزء الرابع على غير نمط الأجزاء السابقة التى أشرف شوقى قبل موته على إصدارها أو إعدادها.

وفى سنة ١٩٣٣ صدرت فى كتاب ملحمة شعرية تاريخية (دول العرب وعظماء الإسلام) كان نظمها فى منفاه بالأندلس.

الروايات : رواية (على بك أو ما هى دولة المماليك). ألفها وهو نزيل باريس فى أكتوبر سنة ١٨٩٣.

وفى مارس سنة ١٩٣٢ أعاد بناءها وأصدرها من جديد، فأصبحت رواية أخرى تحت الأولى. فلم يعد طبعها. وفى سنة ١٨٩٧ نشر رواية (عذراء الهند) ـ وهى رواية نثرية ـ فى (الأهرام) من ٢٠ يوليو إلى ١٦ أكتوبر تحت عنوان (عذراء

الهند أو تمدن الفراعنة). وظهرت فى كتاب فى نوفمبر من السنة نفسها، كانت توجد منه نسخة فى مكتبة طلعت بالقلعة، ولكنها أصبحت فى حكم المفقودة. وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨ صدر العدد الأول من مجلة (الموسوعات) لصاحبها حافظ عوض.

وقد ألحقت بهذا العدد الملزمة الأولى من رواية (لادياس). وقد تمت وطبعت على حدة سنة ١٨٩٩. وهى رواية نثرية. وفى العدد ١٣ من السنة الأولى (إبريل ٩٩) ظهرت الملزمة الأولى من رواية (دل ويتمان أو آخر الفراعنة).. وقدمت الرواية وطبعت على حدة فى سنة ٩٩ أيضًا. وهذه الرواية لم يعد طبعها، وكان مصيرها مصير رواية على بك القديمة، لأن شوقيا أعاد بناءها من جديد شعرًا.. لا نثرًا هذه المرة، وعالج نفس الموضوع بعنوان (قمبيز) سنة ١٩٣١.

وفى سنة ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ نشرت (المجلة المصرية) لصاحبها خليل مطران رواية نثرية (شيطان بنتاؤور) ولكنها لم تطبع على حدة وتجمع فى كتاب إلا فى سنة ١٩٥٣. وفى سنة ١٩٠٤

ظهرت رواية (ورقة الآس) ـ وهى رواية نثرية ـ ضمن روايات مسامرات الشعب وقد أعيد طبعها بعد موت شوقى.

وفى سنة ١٩٢٩ ظهرت رواية (مصرع كليوباترا) فكانت لها ضجة فى عالم الأدب والتمثيل. وتبعتها قمبيز كما قلنا (١٩٣١) و (مجنون ليلى) ـ ١٩٣١. وعلى بك الكبير كما قلنا (مارس ١٩٣٢) و (عنترة) ـ ١٩٣٢ (بعد موت شوقى بأشهر)، وأميرة الأندلس (١٩٣٢) وهى رواية نثرية. روى لى الدكتور سعيد عبده أن شوقيا أتى بهذه الرواية من الأندلس فى مجلدات وكانت مفككة. وأنه بعد نجاح (مجنون ليلى) و (كليوباترا) أخذ يعيد النظر فى أميرة الأندلس ولكنها أخفقت بعد تمثيلها نصف ليلة.. وهى رواية ضعيفة كجميع رواياته النثرية القديمة. وقد طبعت (الست هدى) طبعة هزيلة، وهى رواية قديمة يرجع تأليفها إلى ما قبل سنة ١٩٢٢. وقد نشرت (الرسالة) فى سنة ١٩٣٣ منظرًا منها أعدنا نشره. وله أيضًا رواية (البخيلة). وهذه الرواية لم تتم ولم تطبع. وقد أعارنا الدكتور الأديب سعيد عبده (مخطوطة) الرواية فنشرنا زبدتها (فصلا كاملا وقطعتين) فى (الشوقيات المجهولة).

النثر: ظهرت (أسواق الذهب) طبعة الهلال سنة ١٩٣٢

ـ قبل موت شوقى فيما أعتقد ـ وأعيد طبعها سنة ١٩٥١. وأكثرها على أسلوب المقامات بعضها قديم يرجع إلى أوائل هذا القرن وبعضها جديد كتبه شوقى فى المنفى.

وللأستاذ كامل الشناوى الحق أن يسام أسلوب المقامات، ولكن وسط هذا الحصى المتراكم والصدف المبعثر.. نجد الدر اليتيم الذى يتألق بعبقرية أحمد شوقى!

الفنان الذى قال كلمته .. ولم يمش

كان المفكر الألمانى نيتشه، يصرخ فى الناس أن يقولوا كلمتهم ويتمزقوا دونها... وهناك مفكر عربى ـ لعله أمين الريحانى ـ همس فى كل أذن بهذه النصيحة الوديعة: قل كلمتك وامش!

والفنان الصادق، هو الذى يستطيع أن يقول كلمته، ثم يتمزق.. أو يقولها ويمشى فى سلام!

وشوقى شاعر فنان، شق طريقه إلى الخلود، لأنه عرف

كيف يقول كلمته.. وهو لم يقلها ثم تمزق ولم يقلها ومشى، ولكن قالها وظل صامدًا لها!

إن الظروف التي أحاطت بشوقى منذ فجر حياته كانت كفيلة أن تطبق شفتيه فى بعض المناسبات، وبرغم ذلك، تحدى ظروفه وعبر عن خواطره وانفعالاته، بقوة وطلاقة. لقد ربط مصيره بمصر، وطنه الذى ولد فيه، وآمن بمصر العربية، ومصر الإسلامية، ومصر القوية الفرعونية ذات الحضارة التى تتحدى الزمن، وتنحنى لها هامة التاريخ.

ومصر التى عرفها، كانت تتنازعها سلطتان، إحداهما سلطة الاحتلال البريطانى.. والأخرى سلطة الخديو، وكان يعادى المحتلين لأنهم يمثلون الغدر والعدوان، ويقف إلى جانب الخديو، بوصفه الممثل الشرعى لخليفة آل عثمان، وكان شوقى يؤمن بالخلافة، ويراها رمزًا للوحدة الإسلامية، واندفع فى تأييدها برغم ما ارتكبه من خطايا فى حق مصر، والعرب، والإسلام.. وكان اتجاه شوقى متمشيًا مع اتجاه الحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل. وتطورت نظرة الشعب المصرى إلى التبعية العثمانية، والاحتلال البريطانى. واحتلف رجال الحزب

الوطني مع الخديو عباس الثاني، بعدما تبينوا أنه لا يؤمن بالمبادئ الوطنية، ولكن يلعب بها، ليستأثر باستغلال ثروات البلاد، ويستنزف دماء الفلاحين والكادحين، وقامت ثورة ١٩١٩، وتغير لقب الخديو. فصار سلطانًا، ثم ملكًا، وطالب الشعب بجلاء القوات البريطانية وكانت القوة الشعبية بطبيعتها تنفر من العرش، وكان العرش يفزع منها ويخشاها..

لم يعش شوقي فترة الثورة في مصر، فبعدما تم خلع الخديو عباس من منصبه، نظم شوقي قصيدة استقبل بها السلطان حسين. ورأت السلطات البريطانية في هذه القصيدة حضًّا على كراهيتها، وتمجيدًا للخديو المخلوع.. فقررت الحكومة البريطانية أن تنفي شوقي خارج البلاد، وظل بضع سنوات في إسبانيا، وفي أواخر عام ١٩٢٠ عاد إلى مصر، فمجد الثورة وانفعل بها، وكان يتعقب الإنجليز في كل مناسبة بتجريحهم، وتأليب الرأي العام عليهم، وحرص على ألا يتوجه بقصائده إلى الملك فؤاد، الذي حل مكان السلطان حسين كامل، ولكنه لم يلبث أن أشاد به في بعض القصائد العامة. مثل قصيدة توت عنخ آمون.. التي يشير فيها إلى سرقة جثة

الملك الفرعونى، ويتهم الإنجليز بأنهم هم الذين سرقوا الجثة، ولا ينسى أن يبكى على الخليفة الذى خلعته بريطانيا من تركيا فيقول :

أمن سرق الخليفة وهو حى   يعف عن الملوك مكفنينا؟!

وعندما كان شوقى شاعر الأمير، وكان يشغل منصبًا هاما فى القصر، وقعت أحداث اهتز لها ضمير الشعب، مثل حادث دنشواى، وعزل كرومر، ووفاة مصطفى كامل، وجاءت وفاته عقب خصومته للخديو، ولقد قال شوقى كلمته فى مأساة دنشواى وفى كرومر، ولكنه لم يستطع أن ينشر ما قاله بتوقيعه الصريح.. ورثى مصطفى كامل بقصيدة عبر بها عن حزنه وحبه للزعيم الوطنى، بصدق وانفعال.

وقد نال شوقى فى حياته شهرة ومجدًا.. وفى رأيى أنه ظفر بالشهرة قبل نفيه إلى أسبانيا، فقد كان شعره برغم ميزالته وما يتميز به من إشراق فى الديباجة، ونبض موسيقى.. لا يعلو على شعر غيره من كبار الشعراء المعاصرين، أمثال محمود سامى البارودى، وإسماعيل صبرى، وأحمد محرم، وحافظ إبراهيم، فلما عاد من المنفى، ظفر إلى

جانب الشهرة بالمجد، فقصائده التى نظمها خلال الفترة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٢، تعد أضخم آثار شوقى وأكثرها أصالة، وتألقًا. وفى هذه الفترة بالذات، كان شوقى يعبر عن آرائه فى الأحداث بشعر اتخذ طابع الدبلوماسية دون أن يضطر إلى التخلى عن أسلوبه الفنى الرفيع.

فهو يتعرض لتصريح ٢٨ فبراير وما ترتب عليه من وضع دستور ١٩٢٣، وإقامة حياة نيابية بشكل ما، فلا يرى أن فى ذلك خلاصًا من القيد ويقول:

إلام الخلف بينكمو إلاما　　　وهذى الضجة الكبرى علاما؟

وأين ذهبتمو بالحق لما　　　ركبتم فى قضيته الظلاما؟

ثم يخاطب مصطفى كامل قائلا:

شهيد الحق: قم تره يتيمًا　　　بأرض ضيعت فيها اليتامى

ويرثى سعيد زغلول القاضى وهو أحد أقارب الزعيم سعد زغلول، فيلمح إلى الزعماء المختلفين جميعًا، ويقول:

أيهم من أتى برأس كليب　　　أو شفى القطر من عياء احتلاله

وهو يرى أن كل فرحة زائفة ما لم يتحقق جلاء الإنجليز. ويقول:

والله مادون الجلاء ويومه   يوم تسميه الكنانة عيدا

وكانت آراء شوقى فى الأحداث الكبيرة تتسم بالعمق، والوطنية، والنفاذ إلى كشف الحقيقة ما عدا حادثًا واحدًا هو حادث الثورة العرابية، وقد هاجم عرابى، وكان مفهومًا أن هذا الهجوم بدافع علاقته بالخديو الذى أرادت الثورة العرابية المجيدة أن تقتلع جذره من العرش وتحرر المصريين من ربقة العبودية.

وفى هذه الفترة بالذات ـ من عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢١.. أخرج شوقى مسرحياته التى تعد أول محاولة فنية جديدة للشعر المسرحى فى اللغة العربية.. وهى مجنون ليلى، وكيلوباترا، وقمبيز، وعلى بك الكبير، والست هدى، والمعروف أن المسرحيتين الأخيرتين، كان شوقى قد نظمهما فى صباه، ثم أعاد فيهما النظر ونقلهما من الظل إلى الضوء، بعدما لقيت مسرحياته إعجابًا جارفًا.

* * *

لقد تعودنا فى كل عام أن نحتفل بذكرى شوقى، وكم صدرت عنه دراسات، وأقيمت حفلات وصنعت تماثيل.

وأعتقد أن شوقى ثروة مصرية عربية، يجب أن نحافظ عليها وننميها، بترجمة بعض آثاره إلى اللغات العالمية، وإنشاء كرسى خاص به فى كليات الآداب بجامعاتنا وإقامة تماثيل له فى عواصم المحافظات.

وما زلت أتمنى على أستاذنا الدكتور محمد صبرى صاحب الشوقيات المجهولة أن يتم عمله العظيم، بإعادة طبع دواوين شوقى، وشرح ما فيها من رموز لا يستطيع إدراكها إلا من عاشوا الأحداث التى عاشها شوقى..

وقد عاش الدكتور صبرى هذه الأحداث ورعاها، وسلام على شوقى الفنان الذى قال كلمته ولم يمش.. ولم يتمزق!

عالم فى الذرة والموسيقى
وضعناه فى أكبر المناصب ثم قتلناه

كنت كلما صافحته أحسست أنى ألمس مجموعة من الأسلاك المكهربة، فلا أكاد أمد إليه يدى.. حتى تنتابنى رعشة مبهمة، لعلها رعشة الإجلال له، أو النفور منه!

فقد كان شخصية جليلة، مهيبة، وكان مبعث إجلاله، ومهابته.. تبحره فى علوم لا يدرك قيمتها إلا الأساتذة المتخصصون فى هذه العلوم التى كانت حدثا جديدًا بالنسبة إلى العصر كله، ولغزًا غامضًا بالنسبة إلى البلاد المتخلفة.. وكان بلدنا واحدًا من هذه البلاد عندما لقيت العالم المصرى الذى اقترن اسمه بعدة أبحاث عن الطاقة الذرية، والنظرية النسبية لأينشتاين، وأصدر عدة كتب «عن الهندسة الوصفية» و«الميكانيكا العلمية، والنظرية» و«الهندسة المستوية الفراغية» و«النظرية النسبية الخاصة» و«الذرة والقنابل الذرية» و«العلم» و«الحياة»..

وكان أول من دعا إلى وجوب التعاون العالمى لتوجيه العلماء، ونبه إلى وجود معدن اليورانيوم فى مصر..

إن الرجل قد سبق بيئته العلمية المحلية بكتبه ومحاضراته وأبحاثه ونظرياته وهو يشغل منصبًا جامعيا مرموقًا.. وقد اتسم بالجرأة والصراحة وشجاعة الرأى. وهذه صفات تجذبنا إلى احترامه، وهى فى الوقت نفسه، تدفعنا إلى النفور منه!

فلم يكن من اليسير على مجتمعنا المفتون بالسذاجة فى الأدب والمعرفة، والفن، والسياسة، أن يتجاوب مع عالم يحلق بدراساته وبحوثه فى أعلى الآفاق وعلى مستوى عالمى. فقد حاضر فى منظمات علمية دولية، واحتل اسمه مكانًا كبيرًا بين علماء الرياضة العالميين، وصارت له نظرية خاصة فى النسبية يتعرض لها أساتذة الجامعات فى أوروبا وأمريكا بالمناقشة والجدل وكان يتبادل الرسائل مع أينشتاين.

وهذه العبقرية.. التى تمارس العلم بأستاذية كبيرة وسلوك شخصى مترفع.. كانت إذا اختلطت بالناس بدت كشهاب هبط إلى الأرض ولم يحترق.. كل من رآه يعجب به، ولا يجرؤ على الدنوّ منه.. هكذا كان شعورى عندما تقابلت معه

لأول مرة فى دار المرحوم الأستاذ مكرم عبيد . .

قصير القامة، ممتلىء الجسم فى غير ترهل، تتجلى أناقته فى حركاته، وإشاراته، وكلماته، وبذلته، وربطة عنقه، يحسن الحديث، ويحسن الإصغاء، يخيل لك أنه يهمس إذا تكلم، ويهمس إذا أصغى! فلا يرتفع صوته إلا بقدر ما يصل إلى جاره ولا يميل بجسمه لكى يسمع. ولكن يرهف أذنيه برشاقة ووقار. . وكنت أظن أن هذا العالم الغارق إلى أذنيه فى المراجع الجافة لا يتذوق الأدب والفن، ولا يتعرض للأوضاع السياسية. . وأدهشنى أنه وجه إلى مكرم عبيد ملاحظات هاجم بها الأحزاب كلها، وكان مكرم عبيد رئيسًا لحزب الكتلة بعدما اختلف مع مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد، واضطره هذا الخلاف إلى أن يتعاون مع خصومه بالأمس، من أحزاب الأقليات.

قال العالم الجليل لمكرم عبيد : إنه عمل عظيم أن تثور على فساد الحكم، وأن تمضى فى ثورتك إلى أن تدخل السجن وتضحى بمكانتك فى الحزب الذى ساهمت فى بنائه، وتفضل أصدقاءك الذين شاركوك حياتك الحزبية. ولكن ماهو

الهدف من هذا الموقف؟ هل الهدف أن تمنع حزبًا من الفساد لتفسح المجال لأحزاب أخرى؟ وهل تعتقد أن هذه الأحزاب تستطيع أن تقاوم رغبة من يقف وراءها ليهدم بها حزب الأكثرية ويتولى هو مقاليد الأمور.. فيطغى كما يشاء وينهب كما يشاء!!

وقال مكرم: دعونا من الكلام فى السياسة الآن، فقد اجتمعت بكم الليلة للاحتفال بعيد ميلادى، وأريد أن أنسى السياسة ليلة واحدة كل عام!

وكان من بين المدعوين محام شاب.. وأراد أن يحرج العالم الجليل فسأله: من الإنسان الذى يقف وراء الأحزاب ليجعل منها مخلب قط.. ينهش حزب الأكثرية ثم يطغى هو وينهب كما يشاء؟

وقال العالم الجليل بكل هدوء: إنك تعرفه، لست أخاف من ذكر اسمه، ولكنى لا أريد أن أحرج الرجل الذى يحتفل بعيد ميلاده!

وفهم الجميع أنه يعنى الملك! وارتسم الذهول على وجوه الموجودين جميعًا، فقد كان معروفًا أن القصر وقف إلى جانب

العالم الكبير أكثر من مرة، وسانده ضد حكومة الوفد وحكومات الأحزاب الأخرى. وقد نال رتبة الباشوية. ولم ينكر العالم هذه الحقائق ولكنه حللها بطريقته العلمية. رأى أن القصر لم يناصره إلا ليكيد للوزارات القائمة فى الحكم، وبذلك يبدو أمام الشعب فى صورة نصير العلم والعلماء!

ولم تمض هذه الليلة من عام ١٩٤٨ حتى أصبح أستاذنا العالم المحلق فى آفاق لا نعرفها، قريبًا من نفسى، فلقد انطوى حديث السياسة وأخذنا نستمع للفنان محمد عبد الوهاب وهو يؤدى إحدى أغنياته بالعود.. واتجهت بكل انتباهى واهتمامى إلى هذا الوقور.. لأعرف هل يستمتع بالغناء مثلنا؟..

كان رأسه أشبه بكرة من زئبق يختلج ويتوهج بحرارة، وإشعاع، كان كل ما فيه لامعًا.. خاتمه.. دبوس ربطة العنق.. زرًا كمى القميص.. نظارته.. ذكاؤه الحاد!.

وكان يتابع النغمات بنقرات أصابعه على المقعد، وبضربات خفيفة بأطراف قدميه فوق السجادة!..

وحسبت أن حركاته لاعلاقة لها باللحن، ولما انتهى عبدالوهاب من الغناء، دنوت من العالم الجهير المهيب الأستاذ

الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة وسألته عن رأيه فى الأغنية التى سمعها؟

فقال: إن الأغانى المصرية تمشى فى طريق التطور.

وعدت أسأله: هل تهوى الموسيقى!

فقال: أهواها وأدرسها!

- هل عندنا ألحان عالمية؟

قال: عندنا صوت عالمى.. هو صوت أم كلثوم.

- ولكنك عالم متخصص فى أشياء لا تمت إلى الموسيقى بصلة.

قال: فى أعماق كل عالم.. فنان. هذا إذا صح أنى عالم!

وأخذت أتعقب تاريخ حياة هذه العبقرية الفذة، ووجدتنى أعيش فى جو ساحر يثير العجب والدهشة.

فالدكتور على مشرفة فرض الحديث عنه فى تلك الأيام من عام ١٩٤٨.. فقد أقام فى مصر أول معرض علمى للطاقة الذرية، ولقى هذا المعرض اهتمامًا من الهيئات العلمية الدولية.

وكان يشغل منصب وكيل جامعة القاهرة، ولم يكن للجامعة مدير، فكان هو مدير الجامعة بالنيابة، ثم دب الخلاف بينه وبين الوزارة فأقصته عن وكالة الجامعة، وظل محتفظًا بمنصبه عميدًا لكلية العلوم.

لم يكن الدكتور مشرفة يعبأ بأبهة المنصب، ولكنه شعر بمرارة فى إقصائه عن إدارة الجامعة، وعانى شعوره المر فى صمت وكبرياء.

وفى سنة ١٩٥٠ وقع حادث خطير. لكن قبل أن نصل إلى هذه السنة.. يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء أكثر من إحدى وخمسين سنة.. لنمشى مع حياة مشرفة خطوة خطوة..

فى يوم ١١ يوليو من عام ١٨٩٨ تمت ولادة على مصطفى مشرفة، وفى عام ١٩١٤ حصل على البكالوريا «علمى» من المدرسة السعيدية وكان أول الناجحين فى جميع المدارس. وفى عام ١٩١٧ نال إجازة المعلمين العليا، وسافر فى بعثة إلى إنجلترا، حيث التحق بجامعة نوتنجهام، وتخرج فيها عام ١٩٢٠ بعد ما حصل على بكالوريوس العلوم، ثم التحق بالكلية الملكية بلندن فحصل على دكتوراه الفلسفة فى العلوم عام

١٩٢٣، وفى عام ١٩٢٤ نـال الـدكتوراه فى العلـوم. . فـكان أصغر عالم حصل على هذه الدكتوراه فى العالم. .

اشتغل بالتدريس فى مـدرسة المعلمـين العليـا، وكان أول أستاذ مصرى للرياضة فى كلية العلوم، وظل فى منصـبه هـذا عشر سنوات. وفى عام ١٩٣٦ أصبح أول عميد مصرى لكلية العلوم. وفى عام ١٩٤٦ عين وكيلا لجامعة القاهرة ثم أقصـته الحكومة عن هذا المنصب سـنة ١٩٤٨ وظـل عميـدًا لـكلية العلوم.

وللدكتور على مصطفى مشرفة خمسة وعشرون بحثًا فى نظرية « الكم » ونظرية النسبية لأينشتاين، والطاقة الذرية.

وقد ألف وحده ومع آخرين ثلاثة عشر كتابًا علميًّا، وهو أول عالم مصرى دعته أمريكا رسميًّا إلى إلقـاء محـاضرات عـن الذرة فى جـامعة بـرنستون. وأول عـالم مصرى يشـترك فى الموسوعة العالمية للشخصيات العلميـة طبعـة نيـويورك وطبعـة لندن، وكان عالمًا فى الموسيقى. . فهـو أول مـن قـام بـدراسة مقارنة لاستخدام « الأوكتاف » والمقـام بـين السـلم الموسـيقى الغربى، والسلم الموسيقى الشرقى.

وكان رئيسًا لأول جمعية مصرية لهواة الموسيقى والأغانى العالمية، وعضوًا فى المجلس الأعلى لشئون الموسيقى، واللجنة المصرية لتخليد ذكرى شوبان..

وفى ١٦ يناير من عام ١٩٥٠ وقع الحادث الجلل، احترق الشهاب المشحون علمًا وذكاء وعبقرية. مات على مصطفى مشرفة وفى رأسه كثير من العلم، وفى نفسه كثير من الألم!!

فقد حزت فى نفسه محاولة إذلاله بإقصائه عن منصب وكيل الجامعة، ومنعته كبرياؤه من أن يشكو.. وكما عاش حياته العلمية فى هدوء.. لفظ آخر أنفاس حياته فى هدوء!..

أستاذ أجيال

ما أشبه تاريخ أستاذنا أحمد لطفى السيد بتاريخ بلادى ! ! كلاهما فى حاجة إلى مؤرخ يعيد كتابته بفهم وعدالة. ولست هذا المؤرخ على أى حال !

عرفت لطفى السيد منذ ثلاثة وعشرين عامًا، وكان فى حدود السبعين، وكنت قد قرأت له ترجمة لكتابى أرسطو : « السياسة » و « الكون والفساد »، فاستهوانى أسلوبه الذى يتميز بالدقة والتركيز، والنفور من فضول السجع والمترادفات. . وأغرانى أسلوب لطفى السيد بأن أعكف على قراءة مجموعة « الجريدة » التى كان يرأس تحريرها عام ١٩٠٧، وقرأت له مقالات نشرها فى تلك السنة ومابعدها من سنوات. . لاأذكر الآن عددها. وقد أذهلتنى أفكاره، وتعبيراته، ومجادلاته المنطقية. ولم أهتم بأن أعرف حقيقة « حزب الأمة » الذى كان لطفى السيد ينطق بلسانه، وهل كان يناوئ الخديو وحكم الأتراك لحساب الإنجليز، أو أنه كان يتهاون مع الإنجليز

ليخلص البلاد من ولاية تركيا وأسرة محمد على.. ثم يتفرغ بعد ذلك لمحاربة الاحتلال. كما يؤكد بعض الذين أصابهم رشاش من انتمائهم لحزب الأمة ؟

كان فى استطاعتى إذ ذاك أن أناقش لطفى السيد نفسه فى هذا الموضوع الشائك، وأنا واثق من أن الرجل لن يجد حرجًا فى أن يقول الحقيقة، ولو اقتضاه ذلك أن يدين نفسه. فقد كان لا يهرب من الحقيقة، وكانت شجاعة الرأى من أبرز مزاياه.

ولكنى لم أفعل، فقد فتنتنى شخصية لطفى السيد المفكر، وطغت على شخصية لطفى السيد السياسى. كنت أجد متعة غامرة فى الإصغاء إليه وهو يتحدث عن الأدب، والشعر، والفن، والجمال، والمذاهب الفلسفية القديمة والحديثة، وكان بارعًا فى سرد الحكايات، يحسن رواية الدعابات ويحسن أيضًا الإصغاء إليها بأذنه، وبابتسامته التى تتحول أحيانًا إلى شبه قهقهة !

وقبل ثورة ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ التقيت به فى فندق سيسل بالإسكندرية، وكان يقصّ علينا بصوت خافت،

مايسمعه كل يوم من المهازل والمخازى التى يرويها له أصدقاؤه عن الملك.

وفى أحد الأيام قابلته فى الردهة الخارجية للفندق، وكان يجلس وحده، وناس كثيرون يملأون الردهة فأمسك بيدى، وقادنى إلى أحد الصالونات، وهو يقول:

- إننا الآن نمشى فى الطريق إلى مستشفى المجاذيب.

ولم أفهم مايعنيه بهذه الكلمة، ولما جلسنا فى الصالون روى لى قصة الصفقة التى عقدها عبود مع فاروق لإقالة وزارة الهلالى وتأليف وزارة برياسة حسين سرى، وكيف أن الملك تقاضى من عبود نصف مليون جنيه..

وعقبت قائلا: عندك حق.. هذا تصرف مجانين!

فقال: إنك لم تفهم ما أعنيه بالطريق إلى مستشفى المجاذيب.. لقد قصدت أن أبصرك بأن الأوامر صدرت بأن يساق إلى هذا المستشفى كل من يتناول الذات الملكية، بالعيب أو التجريح!

واستطرد يقول: لقد كثرت قضايا العيب فى الذات

الملكية.. فرأى القصر أن تحفظ النيابة هذه القضايا بعد أن يعتذر المتهمون ويسجلوا ولاءهم للملك «منعًا للشوشرة» وفى يوم الجمعة الماضى وقف أحد الشبان فى المسجد ومنع الخطيب من مغادرة المنبر، وخاطب المصلين قائلا : من كان منكم حريصًا على دينه فليعلم أن صلاته وراء هذا الرجل باطلة.. لأنه يدعو لملك فاجر فاسق.. صلوا ورائى.. وصلى الناس وراء الشاب وتركوا خطيب المسجد يصلى وحده!

وقبض البوليس على الشاب وساقه إلى النيابة، وقال له وكيل النيابة : إننى لا أرضى لك أن تذهب إلى السجن. ولذلك سأسألك هل قلت هذا الكلام؟ وما عليك إلا أن تنكره وتؤكد ولاءك لمولانا الملك.. وعندئذ سأطلق سراحك فورًا..

والتفت وكيل النيابة إلى الكاتب وقال له افتح المحضر، وبدأ يقول للشاب : أنت متهم بأنك تفوهت بكلمات تمس الذات الملكية.. فهل هذا صحيح؟؟

وقال الشاب : نعم!! هذا صحيح!

وقال وكيل النيابة : أنت طبعًا لاتقصد جلالة الملك

مولانا الذى نكن له جميعًا صادق الولاء؟

فقال الشاب: أنا لا أقصد سوى هذا الملك الفاسق العربيد!

وأسقط فى يد وكيل النيابة، وأسرع فقابل النائب العام، وعرض عليه المشكلة، واتصل النائب العام بالقصر وأبلغ المسئولين بما حدث وسألهم: ماذا نصنع إزاء هذا الموقف الغريب؟ فطلبوا منه أن يسوق الشاب وأمثاله إلى مستشفى المجاذيب!

وضحك لطفى السيد وقال: وهكذا أصبح كل من يقول كلمة عن الملك.. معرضًا لدخول مستشفى المجاذيب..

ولطفى السيد الكاتب المفكر المؤمن بالحريات.. ذو العقلية الفلسفية، كان يؤيد دعوة قاسم أمين إلى مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات، وكان أحد ثلاثة بذلوا جهودًا شاقة لإنشاء جامعة أهلية مصرية، أما زميلاه فى هذا العمل العظيم.. فهما سعد زغلول وقاسم أمين. وعندما أصبحت الجامعة الأهلية جامعة رسمية، كان هو أول مدير لها. وقد أرسى فيها قواعد البحث العلمى الأكاديمى، وحمى استقلالها،

واستقال احتجاجًا على إقالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب.

والحق.. أن لطفى السيد باتجاهاته الذهنية واتساع آفاق تفكيره، وإيمانه المطلق بحرية الرأى والعقيدة.. كان جامعة قبل إنشاء الجامعة وقد تخرج فى الجامعة أساتذة كبار تأثروا به، وأخذوا عنه تقاليده فى التلقين والمحاضرة والجدل، وكان على رغم ثقافته الفلسفية والقانونية، مشغوفًا بالآداب العالمية وله ذوق رفيع فى الشعر العربى، وقد أبدى لى إعجابه بشعر ديوان الحماسة والمتنبى والمعرى والشريف الرضى، وكان يترنم بكثير من أشعارهم.

عندما سمعت أن لطفى السيد لفظ أنفاسه الأخيرة.. خيل إلى أن هرمًا عاليًا من الفكر والثقافة.. قد توارى فى التراب وأحسست أنى أبكى.. لم تبك عيناى.. ولكن عقلى أجهش بالبكاء!!

يحرق مذكراته..

منذ تسعة عشر عامًا قابلت لطفى السيد، وسجلت هذه المقابلة فى حديث صحفى - قلت فيه:

اسم عادى لشخص غير عادى.. عقل وخلق وضمير. صوت قوى عذب ظل يغنى لجيله المعرفة والثقافة والفلسفة. ولكن جيله كان بلا آذان.. فمازال به حتى جعل له أذنين، ولسانًا وشفتين، فسمع الجيل، ووعى، وفكر، وتكلم!

وقد بدأ أستاذ الجيل يؤدى رسالته منذ ستين عامًا.. كانت مصر فى حالة انحلال، كان احتلال بريطانيا ونفوذ تركيا يجثمان فوق صدرها، كان الجهل والعبودية يتنازعان عقلها ونفسها. وهبط إلى مصر رجل لفت الأنظار، وجذب القلوب، وأثار الحماسة والتحرر! كان هذا الرجل هو جمال الدين الأفغانى المصلح الإسلامى الثائر. والتف حوله الشباب، وتأثروا بتعاليمه، وآرائه. وكان يدعو إلى الإطاحة برءوس الطغاة والحاكمين العابثين بمصالح الشعب.

وكان الشيخ الأفغانى يؤثر فى شباب مصر ومن بينهم أحمد

لطفى السيد.. ولكن تأثر لطفى السيد لم يدفعه إلى أن يهم بقتل أحد، وإنما دفعه إلى أن يقاتل السخافات والخرافات والجهل. فحمل قلمه وجاهر به واستطاع أن يقتل ويغتال. قتل الأوهام وأحيا الحقائق. واغتال الظلام وأشعل المصابيح..

أرأيت لطفى السيد فى أواخر أيامه؟

قوام مستقيم، وخلق مستقيم. عينان نفاذتان وعقل نفاذ، جبهة عريضة، وجاه عريض.

ولكنك لم تر لطفى السيد منذ ستين عامًا، أو أكثر.. فلنطو السنين القهقرى معًا.. لنرى لطفى السيد يغادر مدرسة الحقوق هو وزملاؤه عبدالخالق ثروت وإسماعيل صدقى وعبدالعزيز فهمى.

صوب نظرتك إليه اليوم، صوبها جيدًا، واقترب من القوام الفارع، وقوم الحناءته الخفيفة، وأمسك بالوجه بين يديك، وامسح تجاعيده، وافتح العينين واسكب فيهما كثيرًا من الومض الذى اختفى.. والتقط بأصابعك الشعرات البيض فى رأسه وفى حاجبيه. ثم اطو السنين الستين التى مضت، يبْدُ لك لطفى السيد كما كان فى سنة ١٨٩٨..



لقد لمع اسمه فى ذلك الحين شابًّا مفكرًا، يتحدث عن أرسطو وأفلاطون، والفارابى، والغزالى. وكان زملاؤه يتحدثون عن الحريرى وبديع الزمان الهمذانى وابن نباته المصرى!!

واشتغل لطفى السيد مساعد نيابة ولبث فى الوظيفة سنتين ثم غادرها إلى المحاماة.. لم يكن مكتبه حافلا بالزبائن ولم يكن هو فى حاجة إليهم. إن أباه السيد باشا أبو على قد كفاه مشقة السعى المادى للحصول على حاجات الحياة.

وفى يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ وقع حادث دنشواى، الحادث الذى اهتزت له البلاد وارتكبت فيه بريطانيا أشنع جرائم العسف والظلم والطغيان.. واشترك لطفى السيد مع زملائه المحامين عن المتهمين فى دراسة القضية. وقد كانت له طريقة خاصة فى المرافعة..

كان المحامون يترافعون فيخطبون ويصيحون ويهتفون، أما هو فكان يتكلم كأنه يكتب، كان فى مرافعته يفكر بصوت مسموع!

هذا الرجل الشجاع المفكر لا بد له من مجال تظهر فيه آثار حريته وشجاعته وفكره.

إن الصحافة هى هذا المجال.. ولكن صحف ذلك العهد كانت تتسع للألفاظ وتضيق بالمعانى. وهو رجل كله معان.

كانت تدعو إلى التحرر من احتلال بريطانيا وإلى الولاء لسلطان تركيا، وهو رجل يريد لبلاده أن تتحرر من بريطانيا وتركيا معًا، فلينشئ صحيفة جديدة إذن. وأنشأ «الجريدة» وساعده على إنشائها حزب الأمة.. وبدأ الأسلوب العربى الجديد يشق طريقه إلى الأذهان، إن أسلوب لطفى السيد اليوم. هو أسلوبه بالأمس.. أسلوب المسدس: تنطلق الكلمة كالرصاصة.. والرصاصة تصيب الهدف. وكان الأسلوب العربى إذ ذاك أشبه بالسيف يدور فى اليد ويلف ويهبط إلى تحت ويصعد إلى فوق.. ثم لا يصيب الهدف!!

نحن الآن فى ١٩٤٩ فى منتصف القرن العشرين فلنمض لحظات مع الرجل الذى هدم خرافات القرن الماضى واشترك فى بناء القرن الجديد! دخلت عليه فى محرابه فى مكتبة داره بمصر الجديدة، إن الذين يقابلهمْ فى هذا الركن هم أعز أصدقائه، وأحبابه. أرسطو وأفلاطون وأناتول فرانس وأبو العلاء المعرى والغزالى.. وأحيانًا شوقى والمتنبى!

كان متعبًا، لأول مرة أشعر بوطأة السنين تضغط قوامه. كانت الأيام من قبل تمشى فى عظامه بخطى متئدة، ولكنى أراها الآن وكأنها تثب وتعدو. عرفته دائمًا منتصب القامة.. ولكنه فى هذه المرة اضطر ـ لكى يسمعنى. إلى أن يحنى هامته ويمد رقبته قليلا إلى الأمام، ويصوب أذنه نحو فمى!..

كان فى دور النقاهة.. وقال لى: تحدث أنت.. فإن الكلام أصبح يرهقنى، ولولا أنى لا أحسن الشكوى، لشكوت من زمان طويل!

قلت إن الجيل الجديد كله فى حاجة إلى حياتك وإلى شيخوختك.. إنك المثل الحى للحرية والاضطهاد.. ولقد استطعت بحريتك أن تنتصر على مضطهديك!! فطغى أسلوبك وانتشرت تعاليمك السامية..

قال أية تعاليم؟.. إننى لم أفعل شيئًا! كل ما هنالك أنى ساهمت فى الحركة التى قام بها بعض المصلحين من أبناء زمانى أمثال سعد زغلول وحسين رشدى وعبد الخالق ثروت وقاسم أمين وعلى شعراوى ومحمد عبده.. وكانت مهمتنا ـ أقصد مهمتهم ـ صعبة جدًا. كنا نحاول أن نشق للشعب

طريقًا فى جبل شامخ لـه ذروتـان. . إحـداهما ذروة الخـديو، والأخرى ذروة الإنجليز. كنا نطالب الخديو بـدستورنا ونـطالب الإنجليز بحريتنا . .

إلى أن كانت ثورة ١٩١٩، وفى هـذه الثـورة وحـدها. . استطاعت الأمة أن تعـبر عـن إرادتها تجـاهد وتصـمد فى جهادها، والفضل فى ذلك يرجع إلى الإنجلـيز. . لا تـدهش. إنهم هم الذين أوقدوا نـار الثـورة بـسرعونتهم وتصرفـاتهم الطائشة!! ولست أقول ذلك الآن فقط. .

فى سنة ١٩١٩ نفسـها سـأل «كيرزن قـائلا»: أريـد أن أعرف من هو المسئول عن هذه الثورة؟

فكان جوابى أنتم المسئـولون عـن ثـورة المصريين. إن احتلالكم وحماقاتكم المتكررة مع الشـعب كانـت وقـود النـار، وعود الثقاب.

قلت: إن هذا تاريخ حـافل. . وأنـت قـد عشـت ذلك التاريخ. . بل لقد صنعته فأين مذكراتك عنه. .

فقال: مذكراتى؟. . لقد أحرقتها!!

قلت: إنها تاريخ بلادك. . فكيف أحرقتها؟

قال : فى يوم من أيام سنة ١٩١٩ عندما نفى سعد زغلول. ولا أذكر الشهر تمامًا، كنت جالسًا مع على شعراوى فى بيته، وكان معنا عبد العزيز فهمى، وجاء يوسف نحاس وأخبرنا أنه علم أن الإنجليز قرروا أن يلقوا القبض على أربعة من أعضاء الوفد. ويجردوهم من أموالهم ويعدموهم رميًا بالرصاص. ثم قال معقبًا. إنه لا يستبعد أن نكون نحن الثلاثة فى مقدمة هؤلاء الأربعة. ولما سمعت هذا النبأ لم أستغرب وقوعه.. فإنه ليس إلا حلقة من سلسلة الحماقات التى ارتكبتها بريطانيا معنا، ولم يكن يؤلمنى أن أموت رميًا بالرصاص أو شنقًا، فالموت حقيقة لابد من مواجهتها مهما طال اختباؤها فى السنين... ولم يكن يهمنى حرمانى من مالى.. فليس للمال مكان بين القيم التى أعتز بها.. ولكن خشيت من أن تهاجم السلطات البريطانية بيتى، تفتشه وتعثر على مذكراتى السياسية، وقد دونت فيها جميع الحقائق وكان بعضها حلوًا، وكان بعضها مرًا، وفى المذكرات الخاصة يسجل الإنسان كل صغيرة وكبيرة، وقد كانت الصغائر التى تمس حركتنا كثيرة جدًا، كنت أسجل فى مذكراتى رأى سعد زغلول فى ثروت ورشدى وعدلى.. ورأى ثروت وعدلى ورشدى فى

سعد زغلول وهكذا.. وكانت المذكرات تتضمن أسرارًا خطيرة.. إذا اطلع عليها الإنجليز.. استطاعوا أن يؤذوا الحركة إيذاء شديدًا..

ولهذا لم أكد أسمع النبأ الذى ألقاه يوسف نحاس. حتى بادرت بالذهاب إلى بيتى فى سيارة على شعراوى، وكان البيت فى المطرية، وعقب وصولى إليه.. اتجهت إلى مكتبى وأخرجت كل ما فى الدولاب من الأوراق والمذكرات والوثائق.. وأمرت الخادم أن يضعها فى الحمام.. ثم أشعلت فيها النار.

ولا أكتمك أنى حزنت، لقد أحسست أن النار تحرق أفكارى وآرائى وحقبة مهيبة من تاريخ بلدى..

وانتظرت إلى الساعة الثانية صباحًا.. فلما لم يجئ أحد دخلت غرفة نومى، وفى اليوم التالى انتظرت فلم يجئ أحد. وإلى اليوم.. لم يجئ أحد.. ولم أعدم رميًا بالرصاص كما ترى.. وكل ما هنالك أن مذكراتى هى التى أعدمت أو على الأصح أحرقت، وقد أحرقتها بنفس اليد التى كتبتها..

قلت: هذه خسارة كبيرة ولا شك..

فقال: لا أظن.

قلت : إنها تاريخ.

قال : وما قيمة التاريخ ؟ لقد كان فلاسفة الهند وهم فى أوج تفكيرهم قبل ميلاد المسيح بثلاثة آلاف سنة.. يصنعون المعجزات ولكنهم كانوا يعجزون عن أن يؤرخوا ما يصنعونه!

إن العبرة ليست بمقدمات التاريخ.. ولكن العبرة بنتائج التاريخ.

قلت : وماذا ترون فى نتيجة تاريخنا ؟

قال : إن النتيجة عظيمة ولا شك.. إن ما نقاسيه من عذاب وشقاء واضطراب.. يهون حتما أمام أننا أصبحنا أحرارًا، وأننا رأينا الاحتلال البريطانى وهو يتقلص من المدن، وسيأتى اليوم الذى يزول فيه من بلادنا كلها..

لقد كنا فى الماضى أكثر شجاعة... واليوم أصبحنا أكثر حرية.

قلت : والشجاعة ؟

فقال : إنها لا تزال مع الأسف تعيش فى الماضى فقط.

قلت : ولكن كيف ؟! وقد أصبح لنا جيش حارب فعلا وأبدى ضروبًا من الشجاعة..

فقال لا أقصد شجاعة الجيش.. فهذا فخر لا جدال فيه.. ولكنى أقصد شجاعة الرأى.. وهذا ما لانزال فى حاجة إليه!!

* * *

إن لطفى السيد لم يكن أستاذ جيل واحد.. بل كان أستاذ ثلاثة أجيال، فقد عاش أكثر من سبعين عامًا، ورأى بعينه بلاده وقد تحررت من الإنجليز ومن أسرة محمد على..



شيخ الإسلام
ابن الباشا

أستاذ فلسفة.. وزير.. فنان

أحب المرأة.. وعشق باريس!!

احتدمت المناقشة بين أعضاء المؤتمر الوطني حول مساواة الرجل بالمرأة، وعندما تحتدم المناقشات، تتطاير الاتهامات من أفواه المتناقشين في حدة، كما تتطاير الكراسي في أثناء خناقة في حفلة زفاف شعبية أو في مقهى بلدي!!

وكان الشيخ الغزالي - أحد رجال الأزهر - طرفًا في المناقشة، يدرأ عنه اتهامات خصومه، وقال: إن الدين الإسلامي ردّ للمرأة اعتبارها، والله سبحانه وتعالى قد اختار من بين أنبيائه سيدتين ذكر إحداهما وهي مريم العذراء عليها السلام ولم يذكر الأخرى.. وثار الشيخ الغزالي في وجه معارضيه وصاح قائلا: إننا نحن الأزهريين نمثل الشعب

الكادح المظلوم. فالأزهريون جميعًا فقراء ليس بينهم ابـن بـاشا ولا ابن بك إلا واحدًا.. ولم يـذكر فضـيلة الشـيخ الغـزالى اسم هذا الواحد!! فمن هو؟

إن ابن الأزهر هذا.. كان وزيرًا قبـل أن يـكون شـيخًا للإسلام أسرته غنية، وأخوه باشا، وأبوه باشا، وقد نـال هـو رتبة الباشوية. وكانت حياته ظـاهرة اجتماعيـة فـكرية أثـارت حوله غبارًا كثيرًا.. ولكن هذا الغبار لم يعلق بثيـابه الـرشيقة النظيفة، ولقد كانت أفكاره ومشاعره وعقيـدته وأخـلاقه مثـل ثيابه.. رشيقة نظيفة!!

دفع به والده الـثرى الإقـطاعى إلى الأزهـر الشريف، ولم يكن يتردد على الأزهر إلا المسـاكين والفقـراء والهـاربون مـن السخرة التى يعانيها الفلاح. وكانت للأزهر أوقاف ومخصصات لـطلابه أو للمجـاورين - كما كان النـاس يسـمونهم فى تلك الأيام - وهذه الأوقاف والمخصصـات تتحـول إلى «جـراية».. وهى كمية كبيرة من الخبز يتسلمها المجاور فيسد رمقه ببعضـها ويبيع بعضها الآخر بملاليم يسد بها نصـيبه مـن إيجـار الغـرفة التى يسكنها مع زملائه.

وما يتبق من الملاليم ينفقه على الوجبة اليومية الرئيسية، وهى مؤلفة من الفول أو العدس أو الطعمية.. وثمن الوجبة مليم واحد.

وكانت الغرفة الواحدة تتسع عادة لخمسة أشخاص، ولم يكن إيجارها يزيد على ثلاثين قرشًا فى الشهر، أى.. أى أن ما يدفعه الفرد بدل إيجار فى اليوم الواحد لا يتجاوز المليمين.

ومن كان يستقل بغرفته.. يعد مجاورًا غير عادى!

ولم يكن مصطفى عبد الرازق وأخوه على عبد الرازق من المجاورين العاديين ولا من المجاورين غير العاديين.. بل كانا من السراة الأماثل! فقد كانا يعيشان فى قصر والدهما حسن عبد الرازق باشا فى القاهرة.. وكان الباشا عميدًا لأسرة عبد الرازق.. وهى أسرة تملك آلاف الأفدنة فى محافظة المنيا. وتربطها علاقات نسب وقرابة بأكثر العائلات الغنية المنتشرة فى هذه المنطقة بالذات..

كان الطالبان الأزهريان فى عزلة عن زملائهما المجاورين. فهما يسكنان قصرًا تتوافر فيه كل أسباب الرفاهية والراحة، ويأكلان أشهى وألذ أنواع الطعام، ويرفلان فى أفخم الأثواب.

وزملاؤهما يسكنون كل خمسة أو أكثر، غرفة فى «ربع» ليس فيها ماء ولا طعام غير الخبز الجاف والبصل والمِلح، أجسامهم عليلة، وملابسهم متسخة رثة!!

إن حلقة الدرس تجمع بينهم وبين الطالبين الثريين، فإذا انتهى الدرس.. انتهت علاقة الطالبين بزملائهما جميعًا..

إن أحد الطالبين، هو على عبد الرازق، ظهرت له بعدما نال شهادة العالمية، اتجاهات فكرية متحررة ضد الخلافة. وقد أخرجته اتجاهاته من زمرة العلم وصدر قرار بفصله من منصب القاضى الشرعى، ودارت الأيام فرد إليه الأزهر شهادة العالمية وصار هو الآخر وزيرًا وباشا!

ولكن لندع على عبد الرازق جانبًا.. فقد كان أصغر من مصطفى وكانا يطلبان العلم فى الأزهر، كان على فى أولى الدرجات.. وكان مصطفى قد اجتاز بضع درجات فى طلب العلم.

ولقد عاش مصطفى عبد الرازق فى الأزهر فترة عصيبة، هى الفترة التى عاد فيها الإمام محمد عبده من منفاه وتولى منصب الإفتاء وقاد حركة الإصلاح فى الأزهر. وقد قامت بينه

وبين الخديو حرب طاحنة، وهب كبار علماء الأزهر يدرءون خطر محمد عبده.. فقد كان امتدادًا لجمال الدين الأفغانى. كان يدعو إلى صداقة العلم والدين، ويطالب بفتح باب الاجتهاد وينادى بأعلى صوته:

«إن الشريعة الإسلامية - بما تقرر فيها من قاعدتى الاجتهاد ورعاية الأصلح - من الشرائع التى توافق كل زمان ومكان وتجيز لكل ضرورة حكما يوافق مقتضى المصلحة والحال، مع اعتبار هذه القاعدة شرعًا أيضًا» وقد دعا بإلحاح إلى دراسة أصل الشريعة.. حتى تضع أحكامًا توافق بين جوهر الدين وأحوال الزمان..

وثارت العواصف على الإمام محمد عبده تتهمه بالإلحاد والكفر، وكادت تقتلعه من منصبه، بل كادت تقتلع مهابته عند عامة الناس. وكان طلاب الأزهر إذا رأوه هربوا منه. لينجوا بدينهم.. فقد سمم كبار العلماء أفكار الطلبة، وكانوا يخلعون عليه صفات الزندقة والمروق، ويتهمونه فى شرفه ووطنيته. واستطاع الإنجليز أن يستغلوا الموقف.. فساندوا الشيخ محمد عبده، ورأى هو أن هذه المساندة ستعينه على أن

يهزم خصومه وينفذ برنامج الإصلاح الديني والاجتماعي والعلمي، وكان قد اقتنع بأنه لا خلاص للأمة. إلا عن طريق رفع مستواها دينيًا واجتماعيًا وعلميًا. ولكن المساندة الإنجليزية للإمام ألقت على تصرفاته ظلالا كثيرة من الشبهات. وكان الذين يؤمنون بفكرته قلة، والذين يقفون فى وجهه كثرة. وأين الطلبة من القلة والكثرة؟

إنهم يسمعون بالشيخ فيلعنونه، ويستمعون إليه فيرون ما يبهرهم.. ويبدأ الشيخ يغزو الأزهر بتلاميذه الذين كانوا يتزايدون يومًا بعد يوم.. وكان مصطفى عبد الرازق يخاف على عقيدته من أن يرى الشيخ.. فضلا عن أن يتصل به أو يتلقى عنه درسًا.

وفى ذلك يقول: كنت طالبًا من صغار الطلاب، جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر، وكان أساتذتنا - عفا الله عنهم - لا يفتأون يقدمون لنا الشيخ ويمثلونه خطرًا داهمًا على الدين وأهله، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة، وكنت أفر بديني من أن ألقى الأستاذ أو أستمع لدروسه.. مع أنه صديق لوالدى!

حضرت درسه مرة لأشهد كيف تشبه وجوه الملحدين

وتشبه معها عقولهم وقلوبهم.. فلما رأيت الرجل بالرواق العباسي وسمعته يفسر كتاب الله قلت في ذلك اليوم: «اللهم إن كان هذا إلحادًا فأنا أول الملحدين!»

منذ ذلك الحين.. بدأ الطالب الأزهرى مصطفى عبد الرازق يفتح نوافذ عقله ويتطلع إلى آفاق لم يتعود أمثاله من الطلبة الأزهريين أن يتطلعوا إليها.. فقد أفاد اتصاله بمحمد عبده.. فأدرك أفكارًا ثائرة، وعرف أن هذه الأفكار عاشها المفكر الثائر جمال الدين الأفغانى الذى زلزل قواعد الاستعمار، ودحرج التيجان وهز العروش.

ومضى يبحث وينقب عن الشرارة التى ألهبت ذهن الأفغانى فوجدها فى مبادئ الثورة الفرنسية.. ثورة ١٧٨٩، ثورة الإنسان لحقوقه، وقد اندلعت شرارتها فى العالم، وكان الأفغانى أول زعيم فى الشرق.. أضرمت المبادئ الإنسانية النار فى دمه وعروقه، وقد انتقلت منه النار إلى تلامذته ومريديه فى مختلف البلاد الإسلامية.

وتطلع مصطفى عبدالرازق إلى فرنسا.. البلد الذى شب منه هذا الحريق الفكرى، إنه يريد بعد ما نال شهادة العالمية

من الأزهر أن يتم تعليمه فى فرنسا، ولكن كيف ذلك؟ وهل أعده أبوه للأزهر.. لكى يتحول من رجل دين إلى رجل دنيا.. كشقيقه الأكبر حسن؟

واقنع أسرته بأن يتعلم فى فرنسا، فالتحق بجامعة ليون عام ١٩١٣، وقامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وهو فى فرنسا وظل هناك إلى عام ١٩١٦ ثم عاد إلى مصر، وعندما اقترب المركب من ميناء الإسكندرية خلع اللباس الإفرنجى وارتدى الجبة والقفطان والعمامة، وكان عندما استقل المركب إلى أوربا يرتدى زيه الشرق وخلعه وهو فى المركب؟

وعقب عودته إلى مصر تقرر تعيينه سكرتيرًا عامًا لمجلس الأزهر، ثم مفتشًا للمحاكم الشرعية.. فأستاذًا مساعدًا للفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية.. وكان يرغب فى أن يكون أستاذًا للأدب، فهو تخصص فى الأدب، وله منهاج خاص فى أسلوبه فى الكتابة.. يمتاز برشاقة فنية وجاذبية. وصحيح أن له ولعًا شديدًا بالفلسفة عامة.. ودراسات عميقة فى الفلسفة الإسلامية والفلاسفة المسلمين خاصة، ولكن ولعه بالأدب كان أشد!

وكان مصطفى عبد الرازق رقيقًا، أنيقًا، متلائمًا فى سلوكه مع نفسه.. وسلوكه مع الناس.. كان يحب الحياة، وما الحياة؟ إنها عمل صالح.. وحق.. وخير.. وجمال.

وقد عمل صالحًا.. فأصدر عدة كتب قيمة أهمها: «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» و «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» و «سيرة الكندى والفارابى» و «الدين والوحى والإسلام» و «البهاء زهير» و «محمد عبده» و «مذكرات مسافر» و «مذكرات مقيم» وله دراسات أدبية كثيرة لم تصدر فى كتب بعد. وكان ينشر مذكراته فى جريدة السياسة بتوقيع «الشيخ الفزارى».

هذه الحياة العريضة المليئة بالعلم والمعرفة.. كانت مليئة أيضًا بالعواطف الجبارة، وكان وضعه الدينى شكلا وموضوعاً يقيد انفعالاته المتفجرة.. فهو إذا ذهب إلى أوربا.. يواجه الفتنة ويقاومها.. يشاهد الرقص ويولع به ويصفه بريشة رسام فنان.

وهو لا يقاوم فتنته بالنساء، ولكن يقاوم أيضًا فتنة النساء به. قالت لى حرم أستاذى الدكتور محمود عزمى.. وهى

سيدة روسية مثقفة : إن الشيخ مصطفى كان يفتن عذارى باريس ويهرب بلباقة . . ذكرت أن إحدى الفتيات ذهبت تبحث عنه فى الفندق فوجدت حرم الدكتور عزمى فقالت لها وهى تبكى :

ما كنت أظن أن هذا الإنسان المهذب يحتل قلبى هكذا بوقاحة ! !

وكان للشيخ مصطفى عبد الرازق علاقة عاطفية ناعمة بالكاتبة « مى » ولعله العالم الأزهرى الوحيد الذى نادى بحرية المرأة ودعا إلى رفع الحجاب عن وجهها وعقلها . . وكانت دعوته هذه فى جريدة « السفور » وقد فتنته باريس وكتب عنها يقول :

« باريس موجود حىّ تنبعث الحياة من أرضه وسمائه ورجاله ونسائه . . باريس عظيمة بكل ما تحمل هذه العبارة من معانى الحياة والجلال ، والجمال ، والذوق والفكر ، والانسجام ، والخلود .

ليست باريس صنع شعب من الشعوب ، ولا عمل عصر من العصور . . ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس

المدنيات. باريس عاصمة الدنيا، ولو أن للآخرة عاصمة.. لكانت باريس.. وهل غير باريس للحور والولدان، والجنات والنيران، والصراط والميزان، والفجار والصالحين، والملائكة والشياطين ؟! »

وينتقل إلى وصف المعالم التى زارها هناك، ومن بينها حديقة لكسمبورج.. التى تتوسطها بركة ماء يجلس حولها العشاق فيقول :

« لمحت فتاة بيدها خطاب تقرؤه فيشرق وجهها بالسرور، وتبتسم، وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة وتتلو ما تكتبه فتنحدر عبراتها. وكم يأوى إلى تلك البركة من باك ومبتسم.

ليس ماء ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج.. ولكنه ذوب ابتسامات ودموع...

رويدكم أيها الأطفال العابثون بذلك الماء!!».

ولم يكن الشيخ مصطفى بتكوينه الفكرى والنفسى رجل سياسة.. ولكن الظروف حتمت أن ينتمى إلى الحزب الذى كان أعضاؤه زملاء والده، ولقى فيه شقيقه الأكبر حسن باشا مصرعه.. فقد اغتاله خصوم حزب الأحرار الدستوريين وهو

يغادر جريدة «السياسة».. وأصبح مصطفى عبد الرازق حزبيًّا وسياسيًّا، ولكنه لم يمارس الحزبية ولا السياسة.

وفى عام ١٩٣٨ تقلد منصب وزير الأوقاف، فكان أول وزير يرتدى العمامة.

وفى عام ١٩٤٥ أصبح شيخًا للإسلام وقد فاجأه النبأ.. وأحس أن العبء أضخم من أن يتحمله اتجاهه الفكرى وسلوكه الذهنى.

وحاول عبثًا أن يرفض المنصب، وقد بقى، عامًا واحدًا.. فى عام ١٩٤٦ قامت فى الأزهر ثورة جامحة بسبب تخطى الحكومة لخريجى الأزهر فى بعض المناصب التى كانت تخصصها لهم، فأصبح ينازعهم فيها خريجو كلية الآداب وكلية دار العلوم.

وتهيج الطلبة على شيخ الأزهر.. والفنان الرقيق الخجول، وسمع بأذنيه أصواتًا تهتف بسقوطه.

واتجه إلى بيته، وبعد الظهر ارتدى ملابسه واستعد للذهاب إلى مكتبه فى الأزهر، وقبل أن تجيئه السيارة

ليستقلها.. كان الموت قد وصل إليه.. فمات بالسكتة القلبية.

وذهب من الشيخ مصطفى عبد الرازق كل شيء، رجل الدين، وأستاذ الفلسفة، وبقى منه إلى اليوم. وإلى الغد.. الفنان الذى منح اللغة العربية جديدًا فى التفكير الحر والأسلوب الساحر الأخاذ..

* * *

كنت أقلب فى أوراق الخاصة، فوجدت بينها ورقة تحوى هذه الكلمات: «قابلت اليوم مصطفى عبد الرازق باشا بنادى محمد على. وأمضيت معه ساعة تحدثنا فيها عن وزارة الأوقاف والشاعر البهاء زهير.. والورقة لا تحمل تاريخًا.. وأرجح الظن أن تاريخها يرجع إلى عام ١٩٤١ حيث كان مصطفى عبد الرازق وزيرًا للأوقاف.

وكان قبل أن يتقلد منصب الوزارة أستاذًا فى الجامعة. وقد ألف رسالة عن الشاعر العربى المصرى الرقيق بهاء الدين زهير. وما أكثر وجوه الشبه بين مصطفى عبد الرازق والبهاء

زهير. كلاهما كان يعيش دنياه.. وكلاهما كان رجل دين ورجل سياسة.

أثارت هذه الورقة فى ذهنى ذكريات حية عن الأديب الفقيه الفنان مصطفى عبد الرازق، فقد عرفته من خلال ما نشرته له الصحف باسمه الصريح، أو باسمه المستعار.. وكان لأسلوبه الجميل سحر وفتنة، وكانت آراؤه تسبق زمانه وتتحدى بيئته الدينية.. كان يظاهر قاسم أمين فى دعوته إلى سفور المرأة، وكان يدعو إلى تحرير رءوسنا من الأوهام.. لكى تستطيع أن تفكر فى حرية، وتتأمل فى انطلاق..

كان يؤمن بالله ويؤمن بالإنسان.. وكان من علماء الدين وكان من علماء الدنيا.. كان مفتوح العينين والأذنين، والقلب، والدماغ.. فرأى الجمال، وسمع الموسيقى، ووعى الحكمة، وفكر فى العلم، والفلسفة والفن..

كان قصير القامة، مهيب الطلعة، أنيقًا فى حركته وسكونه ووقفته وجلسته.. أنيقًا فى اختيار كلمته، وابتسامته، وملابسه.

صوت رقيق خاشع، وجه فيه طمأنينة وسماحة، عينان

تشعان ذكاء وحياء.. القسمات حلوة، والشمائل أحلى!

الرأس تحتشد فيه الأفكار، والتأملات، والعلوم..

هذا الرأس ارتدى من الخارج العمامة، والقبعة، والطربوش.. وارتدى من الداخل عمامة الثقافة الدينية، وقبعة الثقافة الغربية، وطربوش المجتمع المصرى القديم!!

فقد كان مصطفى عبد الرازق عالمًا أزهريًا، وأصبح شيخًا للأزهر.. كان خريج السوربون وأصبح أستاذًا فى الجامعة.. كان أحد أقطاب المجتمع السياسى وأصبح وزيرًا.. عاش فى مصر، وفى أوربا، وارتدى البذلة الإفرنجية، والجبة، والقفطان.. ولكنه فى جميع أطواره لم يتنكر لتقاليد أسرته العريقة فى المنيا، ولم يتخل عن لهجته الصعيدية فى أحاديثه العادية.. فكان ينطق العربية بأفصح لسان، ويتكلم الفرنسية برقة وطلاقة، ويستخدم «الجيم» مكان القاف بوصفه واحدًا من أبناء «أبو جرج»!

حمل لقب الباشوية.. ولما صار شيخاً للأزهر، نزل عن الباشوية واحتفظ بلقب الأستاذ الأكبر، ودخل التاريخ وهو الأستاذ الأكبر.

ولكن مصطفى عبد الرازق لم يكن أستاذًا أكبر فى العلوم الأزهرية وحدها.. ولا فى الثقافة الغربية وحدها..

ولم يكن أستاذًا أكبر فى الفلسفة الإسلامية والفقه والتصوف فحسب وإنما هو أيضًا أستاذ أكبر فى الأسلوب وطريقة الأداء.. فقد كان فى كتابته ينسج مشاعره وأفكاره برشاقة تثير النشوة وتخلب الألباب!!

باريس

قال يصف بعض أيامه فى باريس:

«زرت الحى اللاتينى، مجمع الكوليج دى فرانس والسوربون والبانتيون.. حى العلماء والطلاب، وحى الشباب.. رعى الله الشباب!

طوفت حول الجامعة، فإذا طلاب وطالبات.. رغم العطلة يغدون ويروحون، تفيض محافظهم بالكتب والأوراق.. كما تفيض وجوهم الفتية بالنشاط والبشر، وإن علتها ملامح الجهد، والتفكير.. هم من ألوان مختلفة، وبلدان شتى، وأكثر

الطلاب الأجانب جدا وعملا وانتفاعًا بالمقام في أوربا هم اليابانيون.. فيما سمعت.. وأكثرهم ترفًا وانصرافًا إلى اللعب وتضييعًا للدرس هم الرومانيون. أما المصريون.. فليسوا من خير الطلاب ولا من شرهم.. لكنهم ممتازون بالتأنق، والرشاقة، وحسن البزة.

ولا يبدو على محياهم أثر للشحوب.. فيقول قائلون:

إنهم يرفقون بأنفسهم في الدرس رفقًا يحفظ عليهم بهجة الراحة. ويقول قائلون: إن سمرة أديمهم تخدع الناظر عن سمات الجد والنصب وآثار السهر الطويل في المذاكرة والتحصيل.

وكذلك الشأن في طلابنا في مصر نفسها، وكلا التأويلين محتمل في الجميع.

ختمت زيارة الحي اللاتيني.. بحديقة لكسمبورج، وهي روضة ذلك الحي، فيها جلاله وعليها طابعه.. الأشجار العتيقة باسقة فقد اسودت جذوعها، واخضرت أعاليها خضرة مشوبة باصفرار، وانشقت بين صفوفها مسالك تظللها الأغصان المتشابكة، كأنك بينها في سحر يتنفس صباحه في

أعقاب ليل، وكأنك فى تجلى الأسحار وفى هدأتها.

وترى التماثيل البديعة فى شعرها الصامت.. منسجمة فى ذلك الإطار البديع.. وبين حنايا هذه الظلال تجد فنانًا عاكفًا على تصويره، ومفكرًا مستغرقًا فى تفكيره، وشاعرًا يستنزل الوحى من سماء الشعر، وعاشقًا يبث غرامه، ثم تخرج إلى ساحة تبتسم الأنوار فيها والزهر، وتنحدر على درج إلى البركة ذات النافورة.. مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواجها، ومن حولها دكك متفرقة لمن ليسوا أطفالا..».

* * *

إن عشرات من الخواطر، والمشاهدات، والمحاضرات العلمية والأدبية، والفلسفية.. نشرتها الصحف والمجلات للأستاذ مصطفى عبد الرازق، وهى لا تزال حتى هذه اللحظة متفرقة، مبعثرة.. ألا يوجد بين تلامذة مصطفى عبد الرازق وزملائه من يستطيع جمع هذه الآثار فى كتاب؟

إن مثل هذا الكتاب سيضيف إلى مكتبتنا العربية ثروة ثقافية طائلة، ورصيدًا كبيرًا من الفن والجمال.

إحسان عبد القدوس
ثائر على النقاد !

رأيت اليوم إحسان عبد القدوس وهو يغلى من الغضب، وعندما يغضب إحسان تتقلص عضلات وجهه، وتتناثر الألفاظ من فمه كما لو كانت شظايا ! وتصاب حروف الكلمات بانتفاخ شديد.. فإذا الذال كالظاء، والسين كالصاد، والدال كالضاد وحرف الراء كحرف الغين !

قال إن النقاد يتعقبونه بالهجوم والتجريح، فهم يتهمونه بأنه يعمد فى قصصه إلى الإثارة الجنسية، وأنه بهذه الطريقة استطاع أن يجمع حوله كل القراء المراهقين.. وهؤلاء النقاد يكيلون له الاتهامات جزافًا، فكثيرون منهم لم يقرءوا له عملاً كاملاً، ومع ذلك استباحوا لأنفسهم أن يرموه بشر التهم !

وقلت لإحسان : لا ينبغى للمفكر أن يضيق بالنقد. مهما يكن قاسيا. قال إننى لا أبالى القسوة، ولكنى أكره الظلم والنقاد الذين تصدوا لأعمالى بالهدم لم يكونوا قساة، ولكنهم

كانوا ظالمين! وضرب مثلاً على هذا الظلم بما كتبه عنه الدكتور مندور. وقال لقد سبق للدكتور مندور أن اتهمنى بأنى اقتبست قصتى القصيرة «دعنى لولدى» من الكاتب العالمى ستيفان زفايج، وقد رددت على نقده بأسلوب اعتمدت فيه على المنطق، وكل الذين اطلعوا على ردى اقتنعوا بأنى لم أقتبس القصة من أحد، وأن فكرة غيرة الطفل على أمه من عشيقها، وهى الفكرة التى عالجتها فى قصتى، بعيدة فى سياقها، وتفصيلاتها، وجوها، عن الفكرة التى عالجها زفايج. وقد اعترف مندور بأنى تناولت الفكرة بأسلوبى الخاص، وطابعى الذى تميزت به وما هو الفن؟ إنه أسلوب وطابع. والقصة الجديرة بالبقاء هى القصة القائمة على أساس فنى صحيح، ولو تشابهت مع غيرها. والقصة التى لا تبقى هى القصة القائمة على أساس زائف، ولو احتوت على أشياء لم تخطر ببال أحد.

وقال إحسان إنه تحمس للرد على مندور، واعتزم أن يطالب الجريدة بنشر قصته وقصة زفايج فى صفحتين متقابلتين، ليستطيع القراء أن يحكموا له، أو يحكموا لمندور.. ولكنه وجد أن نقد مندور وإن كان ينطوى على تجن وتحامل،

فهو أيضًا ينطوى على تراجع وتأنيب ضمير.. فقد أصر على اتهامه فى صخب وضجة، ثم لم يلبث أن تراجع فى هدوء. وتحصن أمام قرائه بالعبارات التقليدية مثل الإطار العام، والطابع الخاص!

إن الدكتور مندور قد اقتنع بأنه ظلمنى فى الاتهام الذى وجهه لى، وكل ما فى الأمر أنه عز عليه أن ينفى الاتهام أو يسحبه.

والشعور الذى ينتاب إحسان عبد القدوس من النقد، هو شعور أكثر المفكرين والفنانين.. فهناك عداء طبيعى بين النقاد، وبين المفكر والفنان، المفكرون والفنانون يرون أنهم لو لم يكونوا لما كان النقاد.. فهم لا يخلقون الأثر الفنى وحده، ولكن يخلقون الناقد أيضًا! وإلا فكيف يوجد الناقد إذا لم يجد ما ينقده؟ ولهذا يؤلمهم أن يتعالى النقاد عليهم.. لأنهم خالقون، والنقاد مخلوقون!.

أما النقاد فهم يرون أنهم العلماء، والمثقفون، وأن المفكرين والفنانين ليسوا إلا مواهب تحتاج إلى تبصير بالعلم والثقافة والتوجيه، وهى أشياء تفرغ لها النقاد، ولا يستطيع

المفكرون والفنانون أن يجاروهم فى العلم والثقافة؛ لأن هذه المجاراة لا تدع لهم وقتًا للخلق والإنتاج!

ولا أنكر أن النقاد كثيرًا ما يجنحون فى نقدهم إلى القسوة والظلم والتجنى. ولكن هذا الجنوح يفيد العمل الفنى الأصيل. وكم نسمع من فنان أن النقاد تآمروا عليه وهاجموه.. وعندى أن التآمر بالكلمة أهون من التآمر بالصمت!

وما تعانيه نهضة المسرح والسينما والشعر فى بلادنا ليس مبعثه هجوم النقاد عليها، ولكن مبعثه تجاهلهم لهذه النهضة، ومواجهتهم لها بالصمت العميق! وكيف يتكلمون، وقد بلغت الحساسية بممثلينا، وشعرائنا، حد البكاء والعويل من أى نقد لا ينتهى بتضفير أكاليل الغار على كل مسرحية وكل فيلم، وكل ديوان شعر جديد!

وقلت لإحسان: لتكن لك أسوة فى أستاذنا سقراط.. لقد اتهمه حكام أثينا بإفساد الشباب بآرائه، وسقوه السم!

وقال إحسان: لقد كان سقراط فيلسوفًا.. وأنا لست بفيلسوف إننى فنان أعيش بأعصابى فدعوا لى أعصابى كى

أعيش وأعمل. إننى أحب الفن وأكره الفلسفة.. وعندما أصبح فيلسوفًا اشنقونى!!

طه حسين يرميني في جنة الشوك..!

لم أتصور أن الكلمة التى كتبتها عن الفقر الذكى والثراء الغبى ستثير السخط على شخصى بهذه الصورة.. لقد اتهمنى الأغنياء بتحريض الفقراء عليهم، واتهمنى الفقراء بأنى أحاول تخديرهم بكلام لا يسمن ولا يغنى من جوع!

أما أستاذنا الدكتور طه حسين، فهو الوحيد الذى برأنى من التحيز للأغنياء، أو التعصب للفقراء، واكتفى بأن جعلنى من إخوان الشياطين.. تطبيقًا للآية الكريمة التى تقول ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾.

ولقد خصنى بكلمة من كلماته اللاذعة التى اختار لها عنوان «من جنة الشوك» وهذه هى الكلمة:

* * *

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تقرأ ما كتبه

الأستاذ كامل الشناوى فى «الجمهورية» أمس وأنبأنا فيه بأن يده لا تمسك المال إلا كما تمسك الماء الغرابيل.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو قد أكثر قراءة القرآن لصد عن ذلك صدودًا، ولأنفق حين يحسن الإنفاق واقتصد حين يجب الاقتصاد.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وما ذاك!

وقال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: وأنت أيضًا لا تقرأ القرآن. ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا﴾. وقوله عز وجل قبل هذه الآية: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورًا﴾.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لقد هممت أن أذهب مذهب الأستاذ كامل الشناوى.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إياك أن تفعل فإن الله عز وجل قد وصف عباده الذين أخلصوا قلوبهم له فقال فى بعض وصفهم: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان

بين ذلك قواما﴾. فاحرص جهدك على أن تكون من هؤلاء.

وقد كتب الدكتور طه على هامش كلمته، هذه العبارة «لا تنشر وإنما تعرض على كامل الشناوى»

ولكنى لم أستطع أن أطوى الكلمة، وهأنذا أنشرها فى اليوميات، لأتيح للقراء أن يرونى، وقد أمسك بى الدكتور طه ورمانى فى جنة الشوك!

وكل ما قاله الدكتور طه لا يخضع للجدل، فهو من صميم القرآن الكريم الذى أحفظه وأؤمن به. وأعترف بأنى أفهم بمنطق العقل، مدلول ما ورد فى كتاب الله عن التبذير والمبذرين.. ولكن منطق العقل يتعارض أحيانًا مع منطق السلوك!

ولقد قادنى سلوكى بمنطقه الخاص إلى أن أبذر فى إنفاق المال، وهو منطق يقوم على أن التبذير الذى يجعلنى من الشياطين، أو إخوان الشياطين، ليس هو التبذير فى المال بالإنفاق، ولكن التبذير فى العمر بالحرمان من المتاع الحلال.. والحرمان يقتضى التقتير فى الإنفاق، وهكذا يصبح لرصيد

الحياة، وهو شر أنواع التبذير والتبديد!

كان هذا منطق سلوكى فى فهم التبذير، وهو منطق يتعارض مع منطق العقل.. إن كان ذنبًا فأنا التلميذ الفتى لم أقع فيه وحدى.. ولكن وقع فيه أيضًا الأستاذ الشيخ!

وإلا فليقل لى أستاذنا وشيخنا طه حسين ماذا جمع من المال؟ وماذا اقتنى غير البيت الذى يسكنه الآن، وكان إلى سنوات قليلة مضت يستأجر السكن وينفق عرق جبينه على الديون!

ماذا جمع طه حسين؟ ماذا جمع الرجل الذى ملأ الدنيا، وشغل العالم، وربح مئات الألوف من الجنيهات؟

وليسمح الدكتور طه أن أستعير أسلوبه فى جنة الشوك، وأختم به كلمتى على هذا النحو:

قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ: أليست هذه حقيقة.. حقيقة تؤلمك!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إنها لا تؤلمنى.. إنها تشرفنى.!

الشاعر الثائر عبد الحميد الديب

مات الشاعر عبد الحميد الديب.. فمن هو عبد الحميد الديب..؟

كانت حياة عبد الحميد الديب ثورة على الحياة، وكان لهذه الثورة الفردية كل ما للثورات الجماعية من خصائص ومقومات.

أحس عبد الحميد الديب أنه مظلوم، فقد كان شاعرًا، فنانًا، مرهف الحس، ومع ذلك لم يستطع أن ينال حظه من العمل، كان يظل ليله ونهاره يبحث عن لقمة العيش. فإذا عثر عليها لم يجدها فى وظيفة، أو صحيفة، أو مصنع يقدمها إليه لا تكريمًا لشعره، ولا إعجابًا بمواهبه، ولكن شفقة على ما يعانيه، من فقر وفاقة.

وجد المجتمع قد أغلق دونه الأبواب فإذا طلبه يومًا فمن الباب الخلفى، باب البؤس والشقاء، والمرض.

كان بلا مأوى، بلا أهل، بلا عمل، كان – كما قلت

يوم وفاته - يعيش فى الزمان لا فى المكان.. كان ينام فى الليل لا فى فندق ولا فى بيت.. كان يعمل فى النهار لا فى مكتب أو مصنع!

وكما تتحول الثورة الجماعية من شعور إلى تمرد ومقاومة، تحولت ثورة عبد الحميد الديب إلى تمرد على المجتمع، ومقاومة له، فكان هذا الجنوح فى عواطفه، وكانت هذه النظرة القاسية إلى الإنسانية كلها. لقد أحس أنفاسه تختنق بين براثنها ومخالبها.

وكان يحز فى نفسه أن الناس لا يعطفون عليه لأنه شاعر، وإنما هم يعطفون عليه لأنه بائس، فقير مريض. ومن هنا كان يشعر بالمرارة إزاء الناس جميعًا سواء منهم من يبسطون أيديهم ليعينوه ومن يبسطون أيديهم ليقتلوه.

وقد علل علماء النفس هذه الظاهرة الاجتماعية، ظاهرة العطف على الفقراء والمرضى، بأن النفس البشرية تفزع مما تعرض له. فهى تبذل البر والرحمة للفقير والمريض، فزعًا من أن يصيبها الفقر والمرض.

وقديمًا سئل أحد حكماء اليونان:

لماذا نعطف على الفقراء ولا نعطف على أصحاب المواهب!

فقال: لأن الفقر مرض تنتقل عدواه إلى الناس.. أما الموهبة فهى مرض لا تنتقل عدواه إلى أحد!

وهكذا كان الديب يشعر بأن الناس لا يعترفون بشعره، أو مواهبه، وأنهم يعترفون فقط ببؤسه وشقائه.

وهم بين شامت به، ومشفق عليه، وهو ثائر على الشامت والمشفق معًا.

وقد صور فى إحدى قصائده كيف دخل المسجد، لينام، لا ليصلى وكيف غادره بعد صلاة الفجر إلى الشارع، ومر بالمقهى، فأخذ الجالسون يرمقونه بنظراتهم، بعضهم يقول: عربيد.. والآخر يقول مسكين!

إذا أذنوا بالفجر طرت مسرة ... إلى مسجد فيه أصلى وأضجع
أصلى بأذكار المرائى وقلبه ... وبئست صلاة يحتويها تصنع
أمر على المقهى فأسمع شامتًا ... يمزق فى عرضى وآخر يشفع
وقد ساء ظنى بالعباد جميعهم ... فأجمعت رأيى فى العداء وأجمعوا

وهو ينطلق ليلاً ونهارًا. يسعى إلى تحقيق أمله ورجائه.

فيجد فى كل طريق مصرعًا لآماله، وخيبة لرجائه فيصرخ :

أذله الدهر لا مال ولا سكن ... فتى تزيد على أنفاسه المحن
إذا سعى فجميع الأرض قبلته ... وإن أقام فلا أهل ولا وطن
ثيابه - كأمانيه - ممزقة ... كأنها وهى حى فوقه كفن
كأنه حكمة المجنون يرسلها ... من غير وعى فلا تصغى لها أذن

وينتهى به سعيه إلى غرفة يسكنها وإذا هو وحده كل ما فيها من أثاث، ويناجى ربه بأبيات تنبض مرارة وثورة :

أفى غرفتى يارب أم أنا فى لحد ... ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد
لقد كنت أرجو غرفة فوجدتها ... بناء قديم العهد أضيق من جدى
فأهدأ أنفاسى يكاد يهدها ... وأيسر لمس فى بنايتها يردى
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها ... فأرجله أمضى من الصارم الهندى
تساكننى فيها الأفاعى جريئة ... وفى جوها الأمراض تفتك أوتعدى
ترانى بها كل الأثاث فمعطفى ... فراش لنومى أو وقاء من البرد
جوارك يا ربى لمثلى رحمة ... فخذنى.. إلى النيران لا جنة الخلد

وهو ينظر إلى أمته فيراها قد احتضنت الجاهل، والدعى، والمغرور وتركته كمًّا مهملاً، بل وجدها لم تحسه، ولم تشعر به، فيثور :

يا أمة جهلتني وهي عالمة | أن الكواكب من نوري وإشراق
أعيش فيكم بلا أهل ولا سكن | كعيش منتجع المعروف أفاق
وليس لى من حبيب فى دياركمو | إلا الحبيبين أقلامى وأوراق
لم أدر ماذا طعمتم فى موائدكم | لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاق
بين النجوم رجال قد رفعتهمو | إلى السماء فسدوا باب أرزاق

وتتتابع الأيام ، وتجرى وتركض، وهو واقف مكانه، يلهث إعياء وشظفًا سواء عنده المواسم والمآتم. ويذهب فى عيد الأضحى إلى بلدته فى مديرية الغربية، وينزل فى بيته القديم، فيجده قد لقى المصير الذى لقيه الشاعر. . لا شىء فيه إلا البؤس والشقاء والحرمان وذكريات غابرة. وظن من فى القرية أن الديب المغترب قد عاد إلى بيته بالعز، الغارب. وإذا هو يبكى. وإذا الدار تبكى معه.

مروا على الدار يوم العيد ضيفانا | يستمطرون نداها كالذى كانا
والدار لما رأتهم مقبلين لها | تعاورت فى البكا أهلاً وبنيانا
ليت العباد كلاب إن كلبتنا | لما تزل لحفاظ الود عنوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة | لم تشك جوعًا ولم تستجد إنسانًا

وقد قال فى مثل هذه المناسبة يخاطب أهله : !

يا معشر الديب وافى كل مغترب إلا غريبكمو فى مصر ما بانا
ذبحتمو الشاة قربانًا لعيدكمو والدهر قدمنى للبؤس قربانا

وظل عبد الحميد ثائرًا على المجتمع يناصبه العداء، ويواجهه نقمة بنقمة.

وكانت ثورته تهدف إلى خلق مجتمع يحنى رأسه للفنان، لا لصاحب السلطان، ويحنو على صاحب الموهبة لا على صاحب العاهة!.

الساخر بالحياة..

وأخيرًا مات برنارد شو بعد حياة دامت أربعة وتسعين عامًا. وبرنارد شو كاتب فى جميع اللغات، فقد انتقل أدبه الجميل إلى كل لغة حية واحتل فيها مكانًا مرموقًا. وهو فنان موطنه الأصلى إيرلندا، وله بعد ذلك فى كل بلد وطن، ومسرح وجمهور!.

ولد برنارد شو فى العام نفسه الذى ولد فيه أوسكار وايلد وفى البلد نفسه - إيرلندا - وكان كلاهما صاحب

مذهب وصاحب أسلوب. وكانا صديقين برغم تباين نظرتهما إلى الحياة.

كان أوسكار مشغوفًا بأن يحيا كل دقيقة بحدة، وعنف. فعصفت به الحياة وهو فى الرابعة والأربعين؛ وكان شو راغبًا عن الحياة ساخرًا بها هادئًا فى استقبال أيامها، فأعطته أربعة وتسعين عامًا!

عاش أوسكار كل دقيقة من حياته القصيرة، عاش بالعرض..

وعاش برنارد بعض حياته المديدة عاش بالطول!

ترى أيهما قد عاش حقًا؟ وأيهما يا ترى سيعيش فى التاريخ أكثر من صاحبه؟ أوسكار صاحب الأسلوب الحاد العنيف اللاذع الصريح فى جرأة وطيش.. أم شو صاحب الأسلوب الساخر الذى لا تعوزه الصراحة أحيانًا وتعوزه الجرأة والطيش فى كثير من الأحيان؟!

كان شو ساخرًا بالحياة.. وما أكبر سخرية الحياة منه حين أعطته، عمر القرون.. لقد استوى الآن فى مثواه مع من ماتوا فى عمر الزهور!

قال له أحد الصحفيين : إننى أتمنى أن أعيش حتى أراك فى سن المائة، فنظر إليه شو مليًّا ثم قال : ولم لا ؟ ! إن صحتك على ما أرى تسمح بتحقيق هذه الأمنية !

وزار بعض المقابر فوجد على أحد الأضرحة هذه العبارة : هنا يرقد السياسى الشريف فلان، فقال : هل توجد أزمة مقابر حتى يدفنوا السياسى والشريف فى قبر واحد ؟ !

واقترحت عليه إحدى السيدات أن يتزوجها فإذا أنجبا طفلا ورث جمالها هى وورث عقل شو. .

فقال لها : وماذا نصنع إذا ورث رجاحة عقلك وورث جمالى !

كان شو يعتقد أنه سيحيا ٣٠٠ عام. ما أكبر تواضعه ! فسوف يحيا آلاف السنين لا فى الدنيا، ولكن فى التاريخ، وهذه هى الحياة !

الدموع لا تكذب !

أمضيت الليلة فى قراءة أشعار نظمتها خلال عشرين سنة. كل مقطوعة من هذه الأشعار تمثل تجربة دخلتها وبقيت فيها،

كنت ألمح خلال الكلمات كل ما رأيته، وعشته، وأحسسته، عندما نظمت هذه المقطوعة أو تلك، بعضها استطاع أن يعبر بصدق عن شعورى، وبعضها عجز عن التعبير الصادق فالحرف عن الحقيقة تحت ضغط الوزن، أو حكم القافية!

ماذا أسمى هذه المقطوعات التى خاننى فيها التعبير؟ هل أسميها شعرًا عذبًا تطبيقًا للمثل العربى القديم «أعذب الشعر أكذبه»؟ ولكنى لا أومن بصدق هذا المثل. بل إنى أرى أن الشعر مثل أى فن إذا لم يكن صادقًا فهو هباء.. هل أسميه نظمًا؟ ولكن ما قيمة النظم، إذا لم يكن له دافع وهدف من الواقع، والشعور، والتفكير؟ ما جدوى الاهتمام بإطلاق اسم عليه، أو الاحتفاظ به دون تسمية؟

ولم تكد هذه الخواطر تملأ رأسى حتى بادرت بتمزيق أشعارى الزائفة، وأبقيت على الشعر الذى أعرف أنه نبع من ذاتى، وتجاوب مع الواقع الذى عشته.

إن أكثر الشعر الذى احتفظت به، يفيض بالدموع ومن أجل هذا كان صادقًا فليس أصدق من الدمع. إنك تستطيع أن تقول كلامًا جميلاً مقنعًا، يشبه الصدق، وأنت كاذب..

وتستطيع أن تخضع ملامحك، وإشاراتك، وحركاتك للحزن والأسى، وأنت لا تحس حزنًا ولا أسى! وتستطيع أن تضحك ملء فمك وأنت حزين..

أما الدموع فهى لا تكذب، ولا تجاريك فى كذبك.. إنك لا تستطيع أن تسيلها من عينيك إلا إذا مس الحزن قلبك.. والدموع يبعثها الألم، وهى وحدها التى تخفف الألم!

توفيق الحكيم..
بقلم توفيق الحكيم!

كان توفيق الحكيم فيما مضى معروفًا بأنه عدو المرأة والفقر والبرد.. وقد أصبح الآن عدو الفقر والبرد ليس إلا! ولأنه يخشى البرد تراه دائمًا يحكم إغلاق النوافذ والأبواب ولا يعرض أى جزء من جسمه للهواء حتى فى أشهر القيظ الشديد!.. ولأنه يخشى الفقر تراه دائمًا يحكم إغلاق جيوبه على ما فيها من دفاتر شيكات أو بوالص تأمين، وعلى ما فيها من محفظة نقود، وإن كانت هذه المحفظة خالية من النقود!

وليس معنى هذا أن توفيق الحكيم لم يصب بالبرد فى حياته، فما أكثر ما أصيب بالبرد على الرغم من تدثره بالملابس الثقيلة صيفًا وشتاء!

وليس معنى هذا أيضًا أن توفيقا لم يتعرض للفقر وشظف العيش، فإن حياته حافلة بتجارب قاسى فيها الأهوال بسبب قلة النقود.. هكذا هو يقول!

وذكر لى توفيق الحكيم أنه برغم شدة حذره من المرض يمرض كثيرًا. وبرغم خوفه من الفقر ما زال فقيرًا.. ويسألنى: ما رأيك فى هذا؟

وقلت له: هناك حكمة تقول: الناس من خوف الفقر فى فقر.. وتستطيع أن تضيف إليها: والناس من خوف المرض فى مرض.. فلا تخش المرض تنج منه. وإذا أنت لم تخش الفقر تصبح غنيًّا! فضحك وقال: قصدك أصبح غنى النفس..؟ هذا الغنى موجود سواء كان المال موجودًا أو غير موجود!

وكانت هذه الدردشة لمناسبة انقطاعه عن السهر فى دار «أخبار اليوم»، وكان قد اعتاد أن يسهر معنا ليلة فى

الأسبوع، ثم انقطع عن السهر، وقال إنه أصبح لا يسهر إلا فى النهار حتى لا يتعرض للبرد.. وقد سهرت معه هذا النهار فعلا، فى دار صديقنا محمد حسنين هيكل.. وبعد انتهاء الجلسة أو السهرة النهارية، انطلقنا معًا إلى الشارع وأخذنا نتحدث عن آثاره الفنية، وأبديت له إعجابى بكتابه زهرة العمر. لأن هذا الكتاب يرسم ملامح عبقريته، ويلق الضوء على أصولها ويحلل كل قطرة دم، ونبضة عرق، وخلجة نفس والتفاتة ذهن فى توفيق الحكيم الفنان، ووافقنى على هذا الرأى. وأخذ يحلل كتبه وقصصه ومسرحياته. فرفع بعضها إلى القمة، وألق ببعضها فى الهاوية. وقال إن مصيبته الكبرى أن ما يعجب الناس من آثاره لا يعجبه. وما يعجبه لا يعجب الناس!

واقترحت عليه أن يقوم بتأليف دراسة عن آثار توفيق الحكيم. فيتناولها بالنقد، والملاحظة، والهجوم.. وستكون هذه الدراسة ولا شك عملا أدبيًا ضخمًا، وأشرت عليه أن يسميها توفيق الحكيم بقلم توفيق الحكيم!

ولكن توفيق لم يتحمس للاقتراح، واكتفى بأن هز رأسه وقال: اقترح ذلك على طه حسين والعقاد؟

فقلت : هل أقترح عليهما أن يؤلف كل منهما كتابًا فى نقد توفيق الحكيم ؟

فابتسم بصوت مسموع وقال : اقترح عليهما أن يؤلف كل منهما كتابًا فى تحليل آثاره هو : فتقرأ العقاد بقلم العقاد، وطه حسين بقلم طه حسين . .

أنا شخصيًّا أتمنى ذلك !

ذكرى ناجى

لم أستطع أن أحضر الاحتفال الذى أقيم اليوم تخليدًا لذكرى الشاعر الدكتور ناجى. فقد اضطررت إلى مغادرة القاهرة، لظرف خاص مفاجئ.

لا أدرى ماذا حدث فى الاحتفال. . لقد قرأت البرنامج فوجدته عامرًا بأسماء الخطباء والشعراء والمفكرين، ممن عرفوا ناجى الشاعر الإنسان وعاصروه، ودرسوا حياته الأدبية والاجتماعية. لا شك أنهم جميعًا أجادوا فى الإشادة بذكره، وشعره، ولا شك أنهم بكوه أحر بكاء. ولكن لا أدرى هل

وقفوا فى تخليده عند هذا الحد، أو تجاوزوا ذلك إلى إجراءات عملية تخليد ذكرى هذا الشاعر الغنائى العاطفى ؟

يجب لتخليد ذكرى ناجى جمع أشعاره كلها، واختيار الشعر الغنائى منها، وطبعه فى ديوان مستقل، لأن هذا الشعر بالذات تفجر من قلب ناجى، وإنك لتلمح فى كل قصيدة من قصائده الغنائية العاطفية، بصمة أعصابه، وتوقيع دمه !

أما أشعار التأملات والظنون والحيرة والرثاء فتطبع على حدة فى ديوان آخر.

لقد كان ناجى شاعرًا ملتهب الأعصاب مشبوب العاطفة، يغنى آلامه، ويشدو بأحزانه، وفى مجموعة شعره لوحات عاطفية أحب أن أوجه إليها أنظار الملحنين.

ففى ملحمته « الأطلال » أكثر من عشر قطع تفيض شعورًا وصورًا وأخيلة.

اقرأ، بل اسمع :

انت حسن فى ضحاه لم يزل ... وأنا عندى أحزان الطفل
وخيوط النور من نجم أفل ... وبقايا الظل من ركب رحل!

واسمع :

أين مني مجلس أنت به فتنة تمت سناء وسنى
وأنا.. حب وقلب ودم وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق.. رسول بيننا ونديم قدم الكأس لنا
وسقانا. فانتفضنا لحظة لغبار آدمي مسنا!

وقد سبق أن قام المرحوم الدكتور إسماعيل أدهم بدراسة عن شعر ناجى.. ويمكن إعادة طبع هذه الدراسة، وتأليف لجنة من الشعراء والكتاب تتولى وضع دراسة تحليلية شاملة للدكتور إبراهيم ناجى الشاعر والكاتب والطبيب، وتسجل قصة حياته منذ كان طفلا يترنم بالشعر فى درس الحساب.. فيضربه مدرس الحساب! إلى أن لفظ آخر أنفاسه وهو يكشف فى عيادته الخاصة عن قلب أحد مرضاه.. ومات الطبيب وعاش المريض!

احتجاب الصحفيين

الصحف فى إجازة لمناسبة العيد، احتجبت عن الناس اليوم، وستحتجب غدًا.

لماذا لا يحتجب الصحفيون أيضًا، كما احتجبت

صحفهم.. ؟ لماذا لا يريحون الناس منهم، يومًا أو يومين ؟

أعجبتنى هذه الفكرة، واعتزمت أن أنفذها، فقررت ملازمة البيت طول النهار والليل..

تناولت غدائى، واستلقيت على الفراش، أتمطى، وأتثاءب، أطرد اليقظة باصطناع النوم.. وأطرد النوم باصطناع اليقظة.. ولم أحاول أن أقرأ أو أكتب أو أفتح الراديو، أو أتحدث فى التليفون.. وفجأة وجدتنى أنظر إلى غير اتجاه، شارد الفكر، مفتوح الفم.. أشبه بمجنون، أو مجذوب، أو مليونير سفيه.. ! ولم أطق الجنون ولا الانجذاب، ولا المليون جنيه التى تسبب السفه.. فارتديت القميص والبنطلون، وأخذت أتمشى فى البيت، لأشعر بأنى لا أزال إنسانًا عاقلا متحركًا !

ودق جرس الباب، وقبل أن أنبه من معى إلى أنى لست هنا.. كانوا قد استقبلوا الزائر الذى دق الجرس، وقالوا له إنى هنا.. !

وكان الزائر كريما فى تبذير وقته معى.. فقد دامت زيارته أربع ساعات.. ! كان يحدثنى عن أشياء لا أفهمها، حدثنى

عن الزراعة وأثر تقلبات الجو فى المحصول الزراعى.. حدثنى عن تربية المواشى وكيف يستطيع الإنسان بماشية واحدة أن يؤلف ثروة طائلة.. حدثنى عن عظمة مأمور المركز الجديد، وما يمتاز به من أخلاق كريمة، وأنه على عكس المأمور السابق الذى كان شرسًا، ويحب الأذى..!

والزائر الكريم يمت لى بصلة قرابة، وقد جاء القاهرة لتمضية يومين ابتهاجًا بالعيد، وسألته: أين أمضيت اليومين؟

فقال: أنا جئت من القطار إليك. وسأبقى غدًا لأزور المشايخ وأقرأ الفاتحة لأولادنا وأحبابنا، وبعد غد أعود إلى البلد بمشيئة الله.!

وقلت له: ألم يكن فى استطاعتك أن تقرأ الفاتحة وأنت فى بلدك..!

فقال: الحقيقة أن القاهرة أوحشتنى.. لى سنتان لم أرها، وكنت قبل ذلك أجيئها فى العام مرتين..

- وماذا كنت تصنع فيها..؟

قال: كنت أزور المشايخ وأقرأ الفاتحة لأولادنا وأحبابنا..

وعقب قائلا: سمعنا ونحن فى البلد أن القاهرة تغيرت كثيرًا عن زمان.. فهل هذا صحيح..؟

وقلت له: إن القاهرة التى تعنيها وتحن إلى رؤيتها لا تزال كما هى.. لم تتغير فى شىء..؟

وحاولت أن أغريه بالانصراف.. فأغمضت عينى وأطرقت برأسى إلى صدرى كمن يريد أن ينام فقال لى:

- أنت راح تنام والا إيه..؟ الساعة لا تزال ١٠ والمعروف عندنا أن الصحفيين تعودوا أن يسهروا حتى الصباح..

وقلت له: إن الصحف فى إجازة ونحن نسهر لنعمل فيها، وما دامت الصحف لا تصدر فإننا نمنح أنفسنا إجازة من السهر..!

وفهمت منه أنه يريد أن يقضى معى أكثر فترة من الوقت، إلى أن يجىء موعد صلاة الفجر فيؤدى الصلاة فى سيدنا الحسين، ومن هناك يبحث عن سكن أحد أقربائه لينزل ضيفًا عليه.. وسألته: لماذا لا يبحث عن سكن قريبه هذا منذ الآن.. فقال: الصباح رباح، والنهار له عيون..!

وقلت له : لماذا لا تذهب إلى فندق نوم وحالتك تسمح بهذا والحمد لله ؟

فضحك وقال : بعدما شبنا . . عاوزنا ننام فى اللوكاندات والعياذ بالله ! اللى ما عملناها واحنا شباب . . !

وعدت لمثلت دور النائم ، فقال لى :

– انت عامل نايم . . ؟ !

وقلت له : دانا عامل صاحى . . ! أنا نايم فعلا . . !

ولما غادر البيت ، لزمت غرفتى ، وحاولت أن أنام . ولكن أحاديث الرجل وزيارته الكريمة ، أطارت النوم من جفنى وظللت أقرأ حتى الصباح . . وهكذا لم أستطع أن أمنح نفسى إجازة يومًا واحدًا . . لا من الناس ، ولا من الأرق . . !

لغة الأغانى . .

سمعت للأستاذ الدكتور طه حسين حديثًا فى الراديو عن الشاعر المصرى إسماعيل صبرى . وقد أشار إلى ما فى شعر صبرى من رقة وعذوبة وجمال . وتمنى لو أن الملحنين المصريين

التفتوا إلى هذا الشعر، وجعلوا منه مقطوعات غنائية، تحل محل السخف الذى نسمعه كثيرًا أو قليلا فى هذه الأيام!

وليس الدكتور طه وحده بالثائر الوحيد على لغة الأغانى، فكثيرون ثائرون على هذه اللغة، وهم يرمونها بالتبذل والإسفاف. وأحب إنصافًا للتاريخ أن أقول فى غير تحفظ، إن لغة الأغانى اليوم، أرقى وأسمى من لغة أغانى الأمس. بل يمكن أن يقال إن الأغنية الشعبية بلغت من حيث الصياغة الفنية، والمضمون، وطريقة نقاوة الموضوع ما لم يبلغه الشعر الفصيح فى أزهى عصوره. وأنا أطالب الدكتور طه وجميع الثائرين على لغة الأغانى أن يتابعوا تطور الأغنية المصرية وكيف كانت تتضمن مثلا: «شفتى بتاكلنى أنا فى عرضك» و«ميلتى بختى فى الحب يا أختى»! و«قدك أمير الأغصان» إلى غير ذلك من عبارات سقيمة تافهة.

كانت هذه لغة أغانينا بالأمس، ولقد تطورت الأغانى حتى صارت مقطوعات شعرية، ترسم صورًا فنية كاملة، تمتاز بالجمال، والعذوبة، والوضوح.

لست أزعم أن الأغانى كلها أصبحت كذلك، ولكنى

أقول - دون أن أتجاوز الحقيقة - إن تسعين فى المائة من الأغانى التى ترددها مطرباتنا ومطربونا تمثل أرق أسلوب للأغنية العاطفية.

ولكن الثورة على الأغانى لا تقف عند حد لغتها بل هى تتجاوزها إلى الموضوع، وقد بدأ هذه الثورة الأستاذ سامى داود وتابعها واستمر فيها الأستاذ حسن إمام عمر، وكلاهما يأخذ على الأغنية المصرية أنها لا تزال ترزح تحت عبء الذل والهوان، وتتحرك فى إطار اللوعة والهوى، وأنا أوافق الصديقين على أن الأغنية المصرية يجب أن تعبر عن الحياة، وليس معقولا أن حياتنا كلها صبابة، وشكوى، وبكاء على الأحباب. ففى حياتنا تمرد على الفقر والحرمان، وفى حياتنا كفاح فى المصنع والمزرعة. وفى حياتنا مقاومة للحروب، واستجابة للسلام، وفى حياتنا كما فى كل حياة، وفاء وغدر، وخير وشر، ونور وظلام، وأضواء وظلال، وثورة وهدوء.

ولكن من المسئول عن تقصير أغانينا؟ هل هم الشعراء؟ لا أظن فنحن نقرأ لهم شعرًا يمثل الحياة من جميع جوانبها وزواياها، ولا نسمع هذا الشعر يغنى إلا إذا كان يصور جانب الحب وزاوية الألم؟

هل المطربون هم المسئولون؟ ولكن هـؤلاء - فى الغـالب - لا يؤدون الأغنية إلا إذا كان لها مـكان فى الفيـلم، أو فى برنامج الإذاعة؟

المسئولون فى رأيى عن هذا التقصير هـم مخـرجو الأفـلام ومنتجوها ولجنة اختيار الأغانى فى الإذاعة.

وأبادر فأقول إنى لا أريـد أن تصـبح كل أغـانينا صـورًا وصفية للمصانع والمزارع والشـوارع، ولـكنى أريـد أن تـكون تعبيرًا صادقًا عن الـكفاح فى المصـنع، والمزرعـة، والشـارع، وليس معنى ذلك أن تلغى الأغانى الـتى تعـبر عـن المشـاعر الإنسانية الثابتة، مشـاعر الألم والحـب. فنحـن فى حـاجة إلى هذه الأغانى، حاجتنا إلى المصنع نفسه، والمزرعة نفسها!

مولد.. ووفاة!

كان رأسى يدور حول لا غاية ولا هدف، وأنـا أمشى فى فناء محطة القاهرة بين مئات دارت رؤوسهم مثلى.. كنا نـودع صديقًا من عالمنا ونشيعه إلى عالم آخر!

وانهالت انفعالات الحزن والحيرة والتساؤل على نفسى..

وتذكرت كيف احتفلنا منذ سنوات بعيد ميلاد صديقنا.. وكيف نحتفل اليوم بوفاته ؟

كان احتفالنا بعيد ميلاد حسن الأعور فى الباخرة « أربيبا » عام ١٩٤٦ أو ٤٧ لا أذكر بالضبط. وكان قد أقام فى الباخرة بضعة أيام، يلتمس الراحة والبعد عن جو البيت، وحل عيد ميلاده وهو فى الباخرة، واقترح عليه أحد أصدقائه أن يقيم احتفالا، فقال : نحن صعايدة ولا نعرف مثل هذه العادات. وأقسم الصديق أن يقيم فى الباخرة حفلة لم يعرف مثلها أحد قبل حسن الأعور.. وبر الصديق بقسمه. فقد حضر الحفلة عشرون من أصدقاء حسن بينهم الدكتور عبدالوهاب مورو، والدكتور حسين عرفان، والأساتذة توفيق الحكيم، وعبدالوهاب الشريعى، وقاسم الشريعى، والسيدة أم كلثوم، والأستاذ محمد عبد الوهاب، والمرحومة الآنسة كاميليا. وأشاع حسن الأعور بين الموجودين أنى معجب بجمال كاميليا. وأخذ يداعبنى بقفشاته، ويسخر من ذوقى.. وأخرجنى جو السهرة عن هدوئى فنظمت أبياتًا من الشعر وجهتها إلى كاميليا أذكر منها هذا البيت.

إن بعض الجمال يذهل قلبى عن ضلوعى. فكيف كل الجمال

وتطوع توفيق الحكيم بترجمة أبيات الشعر إلى اللغة الفرنسية.. لتتمكن كاميليا من فهمها وتذوقها، وتولى عبدالوهاب تلحين الأبيات وقد حفظتها أم كلثوم فى الحال وغنتها، وظل عبدالوهاب ممسكًا العود لأم كلثوم، وظلت أم كلثوم تغنى حتى مطلع الفجر!

ما أكثر الابتسامات، والضحكات. وانتفاضات المرح والنشوة التى بعثها فينا احتفالنا بعيد ميلاد صديقنا.

واليوم ـ بعد ثمانى سنوات أو أكثر ـ استحالت هذه الابتسامات والضحكات دموعًا حارقة، واستحالت انتفاضاتنا المرحة النشوانة صواعق انقضت على نفوسنا ونحن نستقبل جثمان الصديق من القطار العائد من الإسكندرية ونضعه فى القطار الذاهب إلى المنيا.. إلى العدم!

قسوة الحرمان فى حياة أنور وجدى

كنت فى طريق إلى دار أحد أصدقائى فى الزمالك، وكان معى الفنان محمد عبد الوهاب. فأشار إلى «فيلا» أنيقة وقال لى: هذه هى «الفيلا» التى كان المرحوم أنور وجدى قد

اشتراها قبيل وفاته وأعدها لسكنه وقد مات رحمه الله قبل أن تطأها قدماه!

وفى المساء قابلت الأستاذ جليل البندارى أمام وزارة الأوقاف، وكان يحمل ورقة وقلمًا فلما رآنى أخفى الورقة فى جيبه وصافحنى بيده وسألته عن الورق الذى أخفاه وهل يتضمن أغنية جديدة. أو قصة سينمائية أو عقدًا بينه وبين فنانين أو مقالا صحفيًّا؟ فجليل البندارى مؤلف أغانى وقصصى ومنتج سينمائى ومحرر فى دار «أخبار اليوم» وانفتح فم جليل عن ابتسامة أو تكشيرة لا أدرى!! فمن العسير أن تعرف تكشيرة جليل من ابتسامته... إلا إذا قال لك بصراحة هذه تكشيرة وهذه ابتسامة!

وفهمت مما قاله جليل أنه حزين، وروى لى أنه كان يسجل فى الورقة التى دسها فى جيبه معلومات عن أنور وجدى.

وأردت أن أضيف إلى معلوماته أن الفيلا التى بناها أنور ليسكنها لم يدخل بابها.. فقال لى: بل إن هذه العمارة التى دفع فيها معظم ثروته والتى جذبت إليه عيون الحاسدين لم

يدخلها وهى كاملة البناء.. ثم قال: هل تعلم أن أنور صاحب هذه العمارة. وصاحب فيلا الزمالك لم يجد بعد موته غرفة يبيت فيها جثمانه إلى الصباح.. لقد ظل جثمان أنور فوق الرصيف فى حراسة موظف عنده يدعى «ليون»..

واستطرد يروى القصة:

على أثر وصول الطائرة التى تقل جثمان أنور وجدى وتقل قرينته السيدة ليلى فوزى تجمع الناس حول ليلى، وتركوا الجثمان فى حراسة الخواجة «ليون» وجاء أهل أنور، وصحبوا ليلى معهم فى عربة وأخذوا يتحسسون جسدها بأيديهم للاطمئنان على صحتها الغالية... وأكدت لهم ليلى أنها لا تحمل مرضًا... ولا تحمل لهم حقدًا... ولا تحمل أى شيء!

وذهب ليون بالجثمان إلى مكتب أنور فوجده مغلقًا، وذهب إلى البيت فوجده مغلقًا. فبقى مع الجثمان فوق الرصيف. حتى الصباح، ثم استقل عربة إلى المقابر ولم يكد أهل الفقيد يصلون إلى المقبرة حتى جاءهم من يقول إن مندوب إدارة التركات قد وصل إلى مكتب أنور، فتركوا أهله المقابر وعادوا

إلى المكتب ليقابلوا مندوب التركات!

وتولى ليون وحده دفن الجثة هو وبعض أصدقاء أنور ممن ليس لهم فى تركته أدنى نصيب..!

كم لقى أنور وجدى.. من قسوة الحرمان.. عاش يكافح الفقر والإخفاق، فلما أثرى ونجح أخذ يكافح المرض والموت.. إلى أن مات محرومًا..

العمارة التى شيدها لم يستمتع بها، والفيلا التى اشتراها لم يسكنها، والمال الذى جمعه بصحته وحياته لم ينفق منه إلا على مرضه وموته..

ما أعجب حكمة القدر!.. عندما نستطيع الحياة لا نجدها.. وعندما نجدها لا نستطيعها!!

الإمام المراغى وحافظ إبراهيم

حضرت الاحتفال بذكرى الإمام المراغى فى داره بحلوان. لقد أحببت هذا الرجل بعقلى وقلبى. أحببته إنسانًا، وأحببته رجل دين.



كان زميلا لوالدى. فعرفته وأنا طفل صغير. وكانت طلعته تبهرنى. وكنت أجد راحة كبيرة فى الإصغاء إليه، وهو يتحدث فى أشياء لا أفهمها ولا أعيها. كان صوته ساحرًا جذابًا.

ولما كبرت، وأصبح فى استطاعتى أن أدرك وأعى، تبدلت نظرتى إلى كثيرٍ من الناس والأشياء، ولكن نظرتى إلى الشيخ المراغى لم تتبدل. فظللت مبهورًا بشخصيته، وكان صوته وهو يتحدث فى المسائل العامة، أو يلقى أحاديثه الدينية، يأخذ أذنى، ويخطف سمعى.

وكان - كلما لقينى - يسألنى عن آخر ما قرأته فى الشعر العربى.. ثم يعقب على ذلك بإنشاد أبيات لأبى العلاء أو المتنبى أو شوقى ويقول هل هناك ما هو أجمل من الشعر؟!

وقد كان المراغى أديبًا يحب الشعر والشعراء. وقد تعلق به الشاعر حافظ إبراهيم تعلقًا شديدًا، وكان أجمل أوقات حافظ، هذه الساعات التى يقضيها مع الشيخ المراغى فى داره بحلوان يتناقش معه فى المسائل الدينية والأدبية، وكثيرًا ما كان حافظ يداعب الشيخ. وكان الشيخ يتقبل دعاباته ويحرضه على المزيد منها.

طلب حافظ وهو فى دار المراغى زجاجة كولونيا. فأحضر له الشيخ زجاجة. وقال وهو يقدمها إليه : خذها وأنت وبختك. يا ترى ماركة إيه دى ؟

فقال حافظ على الفور :

لازم مية القسيس ؟!

واشترى الشيخ المراغى خمسة من الديوك الرومى. ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت فأرسل حافظ إلى الشيخ كتاب تعزية قال فيه :

رحم الله خمسة من ديوك ... للمراغى عوجلت بالفناء
فلو أن الأستاذ خير فيها ... بين موت لها وبين فداء
لافتداها بخمسة من شيوخ ... من أساطين هيئة العلماء

وكان المراغى فى ذلك الوقت شيخًا للأزهر ورئيسًا لأساطين هيئة العلماء !! غفر الله لنا ولحافظ إبراهيم !

الغفران

كنا نتحدث عن الشاعر عمر الخيام. هل كان ملحدًا ؟ هل كان شاكًا ؟ هل كان متصوفًا ؟ هل كان عربيدًا ؟

وقلت : إن الخيام كان مؤمنًا... وفغر الحاضرون أفواههم وقالوا هل يكون مؤمنًا من يناقش الله ويعاتبه.. ويقول له : كيف لا تغفر لى إلا إذا تبت عن ذنبي... إنك لست تاجرًا حتى تعطينى غفرانًا مقابل توبة.. ولكنك إله تعطى بلا مقابل !

إن هذا تجديف

قلت : إن هذا التجديف يدل على الإيمان أكثر مما يدل على الإلحاد. فالإيمان بالله هو أن تشعر به.

والخيام يخاطب الله كما لو كان سبحانه وتعالى، كائنًا حيًا يرضى ويغضب، يقسو ويرحم... وهذا شعور عميق نافذ، جارف. بوجود الله.

ربما كان تصور الخيام خاطئًا، ولكن الشعور صحيح، وإذا كان منطق الخيام ضعيفًا أو تافهًا، فإن هذا لا يعنى أنه غير مؤمن، وما أكثر المتصوفين والمنقطعين لعبادة الله الذين خاطبوا ربهم، عاتبين ساخطين، وقد روت الأساطير القديمة أن أيوب، وهو نبي من أنبياء الله، ثار على ما امتحنه الله به، من موت زوجته وأبنائه. وإصابته بالجذام. والبرص

والطاعون... ولما زاره أصدقاؤه من الملائكة والرسل وسمعوا صرخاته فى وجه الله هربوا منه فقال لهم الله لماذا تهربون؟.. لو لم يغضب من فسوقى لما استحق رحمتى!

وتطرق الحديث إلى الخيام وهل هو فيلسوف؟

وقلت إن الفيلسوف يجب أن يكون صاحب مذهب، والخيام صاحب خواطر وأفكار وانفعالات، فهو شاعر وليس فيلسوفًا.. ولقد تأثر بأبى نواس وبأبى العلاء المعرى.

وقيل: إن تأثره بأبى العلاء كان أكثر من تأثره بأبى نواس. وأبو العلاء كان فيلسوفًا.

وقلت إن أبا العلاء لم يكن فيلسوفًا لكن كان شاعرًا، وما تصورناه فلسفة ليس إلا تفكيرًا، وتأملا، ولا يمكن أن نعد زهده فى الحياة وعزوفه عنها مذهبًا فلسفيًا، وإنما هو نظام ربط نفسه به ولم يدع أحدًا إلى انتهاجه.

وفى أثناء ذلك دخل الأستاذ الشيخ الباقورى وقال: عم تتساءلون؟

قلنا: عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون.

وقال: أى نبأ.. وأى خلاف؟

قلنا... نبأ الخيام وهل هو ملحد؟ أو هو مذنب؟

وقال الأستاذ الباقورى إن الخطيئة طبيعة فى الإنسان. وعلى الإنسان ألا يجاهر بها، والله يغفر الذنوب لمن يشاء.. وروى هذا الحديث الشريف وهو:

«كل أمتى معافى، إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل المرء بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان: إنى عملت كذا وكذا.. فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه».

وروى الأستاذ الباقورى حديثًا قدسيًّا هذا نصه:

«عبادى لا تيأسوا من رحمتى إذا أذنبتم، فوعزتى وجلالى لئن لم تذنبوا لخلقت خلقًا غيركم يذنبون، فيستغفرون فأغفر لهم».

توفيق الحكيم
في المجمع اللغوى

دخل توفيق الحكيم المجمع اللغوى، جلس فى المقعد الـذى تعاقب عليه واصف غالى وعبد العزيز فهمـى. وكلاهمـا منـح نفسه للحرية، ومنح الحـرية لنفسـه. كلاهمـا كان شـجاعًا، حرًّا، فواصف غالى صاحب الكلمة المشـهورة : إن فى ميـدان التضحية والمجد لمتسعًا للجميع. وعبد العزيز فهمى هو الـرجل الذى حرر عقله من نير الجمـود وثـار فى وجـه الاسـتبداد الخارجى، والاستبداد الـداخلى، وفى آخـر حيـاته ثـار على الاستبداد اللغوى.. ودعا إلى كتـابة اللغـة العـربية بـالحروف اللاتينية !

وقد أشار توفيق الحكيم فى كلمتـه القيمـة إلى سـلفيه العظيمين وقال إنه سيحمل من بعدهما راية الحـرية فى المجمع اللغوى. وإنه سيدعو إلى تسكين أواخـر الـكلمات. أخـذًا بقاعدة «سكن تسلم» !

وكان توفيق الحكيم يتحدث معنا قبيل الاحتفال بـاستقباله

فى المجمع، وشرح نظريته فى تسكين بعض الكلمات والأسماء. وقال إن الإنسان فى كل لغة إنسان إلا فى اللغة العربية فهو بهلوان! ولما سألناه كيف ذلك؟ قال:

ـ فى اللغة الإنجليزية الرجل «مان» إذا جاء فهو «مان»، وإذا رأيته فهو «مان»، وإذا التقيت به فهو «مان»، وفى اللغة الفرنسية الرجل «لوم» إذا جاء فهو «لوم» وإذا رأيته فهو «لوم» وإذا التقيت به فهو «لوم».

أما فى اللغة العربية فالرجل بهلوان لأنك ترفعه، وتنصبه، وتجره.. فتقول: رأيت رجلا، وهذا رجل، والتقيت برجل..

لست أدرى هل أفرح لتوفيق الحكيم بدخوله المجمع اللغوى أو أشفق عليه؟ إنى أفرح للمجمع اللغوى ولا شك فتوفيق الحكيم يفخر به أى مجمع، فى أى بلد. فى أى عصر. ولكنى أخشى على توفيق الحكيم من مجمعنا. أخشى عليه أن يصيبه ما أصاب فنانًا آخر هو الأستاذ محمود تيمور، فقد كان خارج المجمع كاتبًا تمتاز عباراته بالنبض وبعض الخطأ اللغوى، فلما دخل المجمع، صارت عباراته تمتاز بالهمود وكل الصواب اللغوى..

نريد لتوفيق الحكيم أن يظل فى المجمع اللغوى كما كان خارج المجمع اللغوى.. فإن توفيق الفنان الذى قد يبعده الفن عن روح اللغة.. أبقى على الدهر من توفيق اللغوى الذى قد تبعده اللغة عن روح الفن!

فن سيد درويش

الرسام الفنان «رخا» مشغول فى هذه الأيام بألحان سيد درويش. وقد قام على صفحات «الجيل الجديد» بالدعوة إلى تسجيل هذه الألحان بصوت محمد عبد الوهاب. وقال عبدالوهاب إنه يسره أن يؤدى هذه الألحان بصوته، ويسجلها كلها، ولكنه يخشى مما قد يثيره التسجيل من تنازع ورثة سيد درويش على ثروته الفنية، والمادية، وهل لعبد الوهاب الحق فى أن يسجل ألحان سيد درويش؟ ومن الذى يجنى ثمار هذا التسجيل؟ وربما انتهى الأمر إلى مطالبته بتعويض لأنه سجل الألحان بدون إذن منهم!

وأنا أعذر عبد الوهاب فى تخوفه، وحذره. فقد سبق أن اعتزمت إصدار كتاب عن عبد الحميد الديب، وأخذت أجمع

شعره من أصدقائه وتلامذته ومريديه، ولم أكد أبدأ فى ترتيب مواد الكتاب حتى انهالت على إنذارات من أقارب عبد الحميد الديب. وكل منهم يطالب بنصيبه فى الربح، ويحتفظ بحقه فى مقاضاتى إذا أنا أصدرت الكتاب بدون إذن خاص منه!

وبرغم يقينى من أن القانون لا يعطى هؤلاء الورثة أو المدعين أنهم ورثة أى حق فى مطالبتى بتعويض فقد تراجعت عن تأليف الكتاب، حتى أريح أعصابى ودماغى.

ربما كان الوضع مختلفًا بالنسبة إلى سيد درويش، وعبدالحميد الديب، ولذلك أرى أن يتولى عبدالوهاب تسجيل ألحان سيد درويش بصوته، ولكى يتفادى الدخول فى معركة مع ورثة سيد درويش أقترح على الدولة تكليف عبدالوهاب رسميًّا أن يسجل ألحان سيد درويش.

إن سيد درويش ثروة فنية قومية، ومن حق الدولة، بل من واجبها أن تحافظ عليها وترعاها، وتسجيل ألحانه بصوت عبد الوهاب يكفل لها الحفظ والرعاية..

شعراء الوطنية

قرأت اليوم آخر كتاب للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي وهو كتاب شعراء الوطنية. وقد استرعى انتباهي أن يخلو الكتاب من اسم شاعر حر هو ولى الدين يكن الذي قضى حياته منفيًّا مشردًا، مكافحًا ضد طغيان السلطان عبدالحميد. ولما استقر به المقام فى مصر، أمضى البقية الباقية من حياته مريضًا، ثم مات ضحية الأمراض التي عاناها فى النفى والسجن.

وكان ولى الدين يكن إلى جانب دفاعه عن حريته السياسية، مناضلا فى رفع راية الحرية الفكرية، وقد كان نزّاعًا إلى التجديد فى الشعر. وكان أسلوبه فى الكتابة أسلوبًا قويا يمتاز بالنبض والحرارة والقوة والسهولة. وهو بلا شك يعد فى طليعة المجددين فى الأدب العربى. وقد نشبت بينه وبين المرحوم الشيخ رشيد رضا معركة قلمية عنيفة، ومن عباراته الساخرة التى سارت مجرى الأمثال هذه الكلمة:

إنى أكره شيئين فى اللغة العربية: «أيضًا.. والشيخ

رشيد رضا »!! وكان ذلك منذ أربعين عامًا!

ولما سقط السلطان عبد الحميد بأيدى الثوار فى تركيا نظم شوقى قصيدته الشهيرة:

سل يلدزا ذات القصور هل جاءها نبأ البدور

ورد عليه ولى الدين بقصيدة من نفس الوزن والقافية قال فى مطلعها:

هاجتك خالية القصور فبكيت بالدمع الغزير
وذكرت سكّان الحمى ونسيت سكان القبور

واسترعى انتباهى أيضًا أن يخلو الكتاب من اسم المرحوم مصطفى صادق الرافعى صاحب نشيد «اسلمى يا مصر إننى الفدى» واسم الشاعر الكبير عباس العقاد صاحب النشيد القومى وفيه يقول: «إن رفعنا الرؤوس. فليكن ما يكون. ولتعش يا وطن».

واسترعى انتباهى كذلك ألا تجىء إشارة إلى الشاعر مصطفى لطفى المنفلوطى الذى خاطب الخديو عباس عقب عودته من الحج فقال:

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وإن طال المدى سيبيد

وقد حكم على مصطفى لطفى المنفلوطى بالسجن ستة أشهر. وصحت نبوءة المنفلوطى فباد ملك عباس، وبادت أسرة محمد على برمتها!

ولم أجد فى الديوان بيتًا واحدًا من الشعر الوطنى الحديث. ولست أدرى كيف نذكر الشعر الوطنى دون أن نذكر مثل هذه الأبيات التى قيلت فى معركة القنال...

أنا إن سقطت فخذ مكانى. يا رفيق فى الكفاح
واحمل سلاحى... لا يرعك دمى يسيل من السلاح
وانظر إلى شفتى أطبقتا على هوج الرياح.
وانظر إلى عينى أطبقتا على نور الصباح..
أنا لم أمت.. أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح!

وكيف نذكر الشعر الوطنى دون أن نذكر هذه الأبيات فى ثورة ٢٣ يولية:

بلدى لا عشت إن لم أفتدى يومك الحر بيومى وغدى
نازفًا من دم أعدائك ما نزفوه من أبى أو ولدى
آخذ حريتى من غاصبيها سالبيها.. وبروحى أفتديها

يحضرنى الآن عشرات الأمثلة من الشعر الوطنى الحديث،

وهو شعر يعد من الناحية الفنية أقوى من شعر كثيرين عنى الأستاذ الرافعى بسرد أشعارهم وتاريخ حياتهم . . .

إن هذه الملاحظات السريعة لا تغض من قيمة الجهد الذى بذله أستاذنا الرافعى فى كتابه شعراء الوطنية ، ولا أريد بما أبديته من ملاحظات أكثر من أن أحقق رغبته التى عبر عنها فى مقدمة كتابه بهذه الكلمات :

« إذا نبهنى القارئ إلى شاعر فاتنى الحديث عنه ، ضمن شعراء الوطنية ، فإنى على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص فى الطبعة التالية من الكتاب » .

وهذه العبارة القصيرة ، تنم على خلق عبد الرحمن الرافعى . خلق العالم الذى يبحث عن الحق والحقيقة ، وقد تجلى هذا الخلق فى جميع المؤلفات التى أصدرها الرافعى ، وفى مقدمتها « حقوق الشعب » و « الجمعيات الوطنية » وتاريخ الحركة القومية وعصر محمد على وعصر إسماعيل والثورة العرابية ومصر والسودان ومصطفى كامل ومحمد فريد وثورة ١٩١٩ وفى أعقاب الثورة المصرية .

خليل مطران

حرصت على أن أستمع إلى محاضرة الأستاذ موريس أرقش المحامى فى النادى الشرقى، وكان موضوعها «خليل مطران شاعر الأقطار العربية».. وقد عرض لى ما عاقنى عن الاستماع إلى هذه المحاضرة.

وأحسست أن شيئًا كثيرًا قد فاتنى. فإنى أحب خليل مطران. أحبه إنسانًا وأحبه شاعرًا.

والأستاذ أرقش فى طليعة الذين يستطيعون أن يتحدثوا عن مطران، فيطيلوا الحديث ويحسنوه.

ولقد عرفت خليل مطران فى عام ١٩٤٠، عرفنى به أنطون الجميل (باشا) وجبرائيل تقلا (باشا).

وكان أنطون الجميل يحب مطران الشاعر الإنسان، وكان جبرائيل تقلا يحب مطران الكاتب الإنسان. وكنت إذ ذاك أشرف على الصفحة الأدبية فى «الأهرام»، وكان أنطون (باشا) يشجعنى على إفساح الصفحة لقصائد الشعراء. وكان تقلا (باشا) يقول لى إن الصحف اليومية لا ينبغى أن يكون

فيها مجال للقصائد. واحتكمت إلى خليل مطران، وأنا واثق من أنه سيكون فى صف أنطون الجميل. وإذا هو يقول: جبرائيل تقلا عنده حق.. ولم يكن تقلا (باشا) حاضرًا معنا. وسألته: كيف تقول ذلك وأنت أبو الشعر والشعراء؟

فقال: إن الشعر فن جميل وإذا لم يوضع فى الإطار اللائق به، ذهب رونقه وأصبح مادة عادية مثل بقية المواد التى تنشرها الصحف اليومية. صار أشبه بباب الرياضة والبورصة والوفيات!

وخليل مطران كان معروفًا باسم شاعر القطرين. أى القطر المصرى وقطر الشام. وبعدما أصبحت الشام أقطارًا أطلق عليه اسم شاعر الأقطار العربية.

وهو، فى رأيى، أستاذ المدرسة الحديثة فى الشعر العربى. فقد كان الشعر قبله ألفاظًا ومعانى. فجاء مطران ونظم قصائد كل منها تمثل بناء قائمًا بذاته أو كائنًا حيًا له رأس وقدمان ويدان ولسان وفكر وشعور، وهدف!

وقد بدأ محاولاته الشعرية الأصيلة فى أواخر القرن الماضى.

وفضل مطران على الشعر العربى من الناحية الفنية، لا يقل عن فضل محمود سامى البارودى من الناحية اللفظية.

ولقد نشأ شعراء كثيرون بعد مطران. وربما تفوق عليه شاعر أو أكثر. ولكنه تفوق التلميذ على الأستاذ.

ولقد شهد مطران تكريم الأدب له فى أخريات حياته. فقد تألفت فى عام ١٩٤٤ لجنة ضمت أدباء العروبة وعلماءها وفلاسفتها، وكان اسمها لجنة تكريم خليل مطران. وقامت اللجنة بطبع ديوانه فى أربعة أجزاء كبيرة، وأقامت حفلة فى دار الأوبرا تكلم فيها عشرون شاعرًا وخطيبًا. وحضرها الساسة والوزراء، وأساتذة الجامعات. وقام خليل مطران، وألقى أبياتًا بصوت ضعيف خافت.. عبر فيها عن شكره. وبعد عام على ما أذكر، سكت هذا الطود، ليدوى دائمًا فى تاريخ الشعر العربى الحديث.

المازنى الساخر

اختفى من دنيانا إبراهيم عبد القادر المازنى، مات فى المستشفى وكان قد دخله لإجراء عملية جراحية بسيطة، قبل

وفاته بساعتين كتب مقالا «لأخبار اليوم» وكان أحد كتابها.

وهكذا انتهت حياة المازنى كما بدأت كفاحًا، وكدحًا، وعملا، وإنتاجًا، وتأملا، وتفكيرًا، واضطلاعًا بالمسئولية من أول رمق إلى آخر رمق. فقد واجه المازنى أعباء الحياة وهو طفل صغير مات أبوه وهو فى السادسة من عمره، وتولت والدته تربيته، وأدرك فى طفولته ما تعانيه أمه فى سبيله فتحمل معها المسئولية بقوة وشجاعة، فكان لا يكلفها شيئًا فوق طاقتها، تعطيه مصروفه اليومى فيأخذه ثم يرده إليها كاملا فى نهاية الأسبوع. تقدم له كل يوم ثلاث وجبات من الطعام فيكتفى بوجبتين فقط. تشترى له بدلتين فيستعمل بدلة واحدة. فلما كبر وأصبح قادرًا على الكسب، حمل أمه فوق كتفيه، وأكرمها. وكان رب أسرة ممتازًا فهو يعيش لأبنائه وزوجته، يشقى ليسعدهم، ويتعب ليريحهم. وقد عانى فى حياته إرهاقًا كثيرًا. تخرج فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٠٩ واشتغل بالتدريس فى وزارة المعارف، واستقال ليشتغل فى المدرسة الإعدادية وهى مدرسة أهلية، وكان يدرس معه الأستاذان عباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات. ثم ترك مهنة التدريس واشتغل بالصحافة. وقد عمل مع أمين الرافعى

فى الأخبار، ومع عبد القادر حمزة فى البلاغ، ورأس تحرير جريدة الاتحاد، واشتغل فى صحف دار أخبار اليوم.

والمازنى كاتب كبير صاحب أسلوب فذ فى الكتابة والنقد.

وقد كان برغم عنفه فى مهاجمة خصومه ودفع عدوانهم عليه مهذب اللفظ، عفًّا، مؤدبًا ينأى عن الصغائر، ويترفع عن التجريح. وكان يحمل فى رأسه عقل فيلسوف، ويحمل فى ضلوعه قلب فنان وكان شجاعًا فى إبداء رأيه، وفى العدول عن هذا الرأى إذا ما تبين أنه كان مخطئًا.. هاجم شوقى الشاعر ووصفه بأنه قطعة متلكئة من قديم الزمن.. فلما مات شوقى رثاه وقال إنه ظلمه حين جرده من مكانته ووصفه بأنه شاعر عظيم وأن فقده خسارة لا تعوض.

وقد كان المازنى على حبه للحياة يسخر منها ولا يباليها ويراها ثوبًا يجدر بالأحياء أن يخلعوه. وقد عبر عن هذا الشعور فى كتابه حصاد الهشيم فهو يقول:

«إن الحياة شيء حسن. له فضله ومزيته، ولكنه على ذلك ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه!»

أغانى أم كلثوم وأغانى عبد الوهاب

قال لى أستاذ جليل إنه شديد الإعجاب بأم كلثوم وعبد الوهاب وإنه قد استمع أخيرًا لأغنية عبد الوهاب :

الكاس بين ايدى   والشوق بين عينى
وانت فين عيونك يا حبيبى

واستمع لأغنية أم كلثوم :

وقى الأرض شر مقاديره   لطيف السماء ورحمانها

فتمنى لو أن عبد الوهاب هو الذى طلب إلى لطيف السماء ورحمانها أن يقى الأرض شر مقاديره.. وتمنى لو أن الكأس كانت بين يدى أم كلثوم والشوق بين عينيها وأنها هى التى تتساءل : فين عيونك يا حبيبى !

ومضى الأستاذ الجليل يقول : لقد لاحظت أن بعض أغانى أم كلثوم فيها رجولة عبد الوهاب وأن بعض أغانى عبدالوهاب فيا رقة أم كلثوم... وكنت أتمنى أن تعبر أم كلثوم عن طبيعتها، وأن يعبر عبدالوهاب عن طبيعته !

قلت إن سر ذلك يرجع إلى أن عبد الوهاب وأم كلثوم ظلا فترة طويلة يتنافسان على عرش الغناء. وكان كل منهما يحاول أن يجذب إليه جمهور الآخر. فغنت أم كلثوم للجنس الخشن وغنى عبد الوهاب للجنس الناعم!

قال الأستاذ الجليل: إن الفن الصحيح هو التعبير عن الحياة. وإن عبد الوهاب أو أم كلثوم لا ينقصه التعبير، ولكن ينقصه إحداث انقلاب كبير... انقلاب تنساب فيه أغانى عبد الوهاب من شفتى أم كلثوم وتنطلق أغانى أم كلثوم من فم عبد الوهاب!

من هو... ولى عهد شوقى

ظهر فى لبنان ديوان شعر باسم «دفتر الغزل» للشاعر أمين نخله. وقد سجل الشاعر فى دفتره أبياتًا لأحمد شوقى نظمها عندما زار لبنان قبيل وفاته، وقال فيها عن الشاعر أمين نخله:

هذا ولى لعهدى وقيم الشعر بعدى
فكل من قال شعرا فى الناس عبد لعبدى

وقد قرأت فى مجلة الآداب اللبنانية مقالا طريفًا بقلم مارون عبود، نقد فيه دفتر الغزل وحلله، وداعب الشاعر برأيه فيه فقال إنه «شاعر كبير وكاتب كبير!» واتهمه بالاعتماد على الدعاية فى ترويج بضاعته. ودلل على ذلك بأنه قدم ديوانه بأبيات شوقى التى أعلن فيها أن لخله أمير الشعر بعده! وبأبيات أخرى لشاعر يونانى اسمه «بابادى باناتوس» أثنى فيها على شاعرية أمين نخله. وقد أطلق نخله على باناتوس هذا لقب شاعر اليونان!

وقد تساءل مارون عبود: «ترى من قال لشوقى إننا نعترف بولايته حتى ينصب ولى عهد؟ فكل شىء يورث إلا العلم. ومتى كان الشعر وقف ذرية حتى نجعل له قيمًا؟».

إنى متفق مع الأستاذ عبود فى أن العلوم والفنون لا تورث. وفى رأيى أنه لا يصح أن يكون للشعر أمير أو ملك. ولكن هذا لا ينفى حقيقتين، إحداهما أن شوقى كان شاعرًا عظيمًا، وأن محاولاته فى الشعر التمثيلى ارتفعت به إلى القمة والصدارة فى تاريخ الشعر العربى. أما الحقيقة الأخرى فهى أن شعراء العرب فى عهد شوقى اعترفوا بإمارته للشعر. بل إنهم بايعوه فكان فى وقت واحد ملكا ورئيس جمهورية!

وقد تمت هذه المبايعة فى مهرجان أقيم بالقاهرة عام ١٩٢٦ واشترك فيه شعراء لبنان والعراق وسوريا وفلسطين والحجاز واليمن، وقال حافظ إبراهيم يخاطب شوقى :

أمير القوافى قد أتيت مبايعًا   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولكن هذه المبايعة وما أحيطت بها من ضجة وبهرج لم تمنع كثيرين من استنكارها مع اعترافهم بمكانة شوقى، وشاعريته الفذة. وقد أعدت جريدة السياسة الأسبوعية عددًا خاصًّا عن شوقى امتلأت صفحاته بحملات شديدة تناولت شعر شوقى، وتصرفاته، وأخلاقه وصدر العدد الممتاز فى أيام المهرجان !

وغضب الشاعر محمد الهراوى لأن لجنة المهرجان تجاهلته ولم تدعه لإلقاء قصيدة، وكان من المعجبين بشوقى، فثار عليه. ونظم أبياتًا قال فيها :

هو فى أعينكم   ملك . . . لعله
وهى جمهورية   لا ترى محله . . .
ليس منا شاعر   لم يكن أجله
غير أنا معشر   ليس يرضى ذله

كيف نلق هامنا   حيث يلق نعله

وهكذا تمت مبايعة شوقى أميرًا للشعراء أو ملكًا أو رئيس جمهورية.. فى جو مشحون بالحب والبغضاء، والرضا والغضب.

وقد فرح شوقى بهذه المبايعة، فمن عيوبه أنه كان مولعًا بالقشور يحب الثناء ويخاف من النقد. ويستهويه إطراء شعره، وتلقيبه بأمير الشعراء، ومناداته بيا «باشا»!!

وهى عيوب بيضاء قد تنال منه كإنسان ولكنها لن تنال منه كشاعر عظيم عبقرى!

أما أبياته التى قال فيها عن أمين نخله: هذا ولى لعهدى. فيخيل لى أنه أراد أن يداعب بها أمين نخله.. ومن يدرى لعل أمين نخله هو الذى أراد أن يداعب القراء!!

البلبل الصغير بين شوقي وخصومه

البلبل الصغير..

هكذا كانوا يسمونه منذ ثلاثين عامًا. وقد ظل خمس سنوات يحمل لقب بلبل.. ثم لقب بلبل صغير.. ثم لقب مطرب الملوك والأمراء.. وأخيرًا تنازل عن جميع هذه الألقاب، واحتفظ منها بلقب واحد، هو لقب الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب!

لمع نجم عبد الوهاب لأول مرة خلال الفترة بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٦، وكان شوقى قد سمعه. فأعجب به. وتحمس له، وأخذ يمهد له طريق المجد، فلا يمر يوم دون أن يطالع القراء صورته فى المجلات الفنية والأدبية مقترنة بكلمة. أو مقال، أو قصيدة فى التغنى بصوته، والإشادة بموسيقاه.

وكان شوقى يتراءى من خلال ما تكتبه الصحف عن عبد الوهاب. فقد أعجب بعبد الوهاب، وشغف بصوته حبًّا. وكانت المعركة على أشدها بين شوقى وخصومه، وظهر

فى ذلك الحين كتاب الديوان للكاتبين الكبيرين العقاد والمازنى، وقد تناول هذا الكتاب شعر شوقى وشخصه، وتاريخه وحياته بالهجوم، والنقد، والتجريح. وانقسمت الصحف إلى معسكرين أحدهما يدافع عن شوقى ويهاجم العقاد والمازنى. والآخر يهاجم شوقى ويشيد بأدب العقاد والمازنى.

وكان أنصار شوقى يتعصبون له ضد خصومه، فكل ما يصدر عن خصومه سخيف حقير مبتذل سواء كان أدبًا، أو فنًّا، أو مذهبًا سياسيًّا. وكان خصومه يتعصبون ضده. فالحسن عنده قبيح عندهم. وما يراه صوابًا يرونه خطأ، والبلبل الصغير ليس إلا غرابًا!

وأخذ المازنى رحمه الله يهاجم عبد الوهاب فى جلساته الخاصة. ويقول إن صدر عبد الوهاب ضيق فهو لا يصلح أن يكون مغنيًا ولكن يصلح أن يكون مريضًا!

وكان المازنى لم يسمع عبد الوهاب بعد. ورأى أحد أصدقاء عبد الوهاب أن يحميه من هجوم المازنى عليه. فأقام حفلة فى داره دعا إليها المازنى والعقاد، وغنى عبد الوهاب فى الحفلة، وأبدى العقاد إعجابه بصوت عبد الوهاب، وقال إنه

لا عيب فيه إلا إعجاب شوقى بـه! ولما سئل عـن رأيـه فى عبد الوهاب قال: صوته قـوى عـذب جـذاب، واســتعداده الفنى عظيم، وقيل له هل تمنعـك خصـومتك لشـوقى مـن أن تقول كلمة عن عبد الوهاب؟

فقال: كلا... وسأنظم قصيدة.

ونظم أبياتًا قال فيها:

إيه عبد الوهاب إنـك شـاد ... يطرب السمع والحجا والفؤادا
قـد سمعنـاك ليلـة فعلمنـا ... كيف يهوى المعذبون السهادا
ونفينـا الـرقاد عنـا لأنـا ... قد حلمنا وما غشينا الرقادا
بارك الله فى حيـاتك للفـن ... وأبقـاك للمحبـين زادا...

وكتب المازنى يصف الليلة التى غـنى فيهـا عبـد الـوهاب فقال:

ومن أمتع ما مر بى فى هذه الحياة - التى لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تتـكرر - ليلـة قضـيتها بـين شراب وسماع. فأما الشراب فلعل القارئ أدرى به! وأما السماع فقلّ من شجى به كما شجيت فى تلك الليلة.. إى والله وما زلت إلى السـاعة - كلما خلوت بنفسى - أغمض عيـنى وأتسـمع

وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بى كما لم يهجنى صوت سواه.. وقد أعجب لما يصب فى الأذن أين يذهب؟ وربما أثارنى هذا العجز عن إحياء صوت أكثر من تصوره فى ضمير الفؤاد، وقد أغالى فى إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئًا منها بكل مالى - لو أن لى شيئًا! - ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفنى إلى إنشائها الطرب العارض.

ثم أسخر من سخرى وأقول لنفسى فى حدة: أولا يسر الإسكندر، وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلى عن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلا منهم ليلة واحدة كهذه الليلة التى نعمت فيها!

كأنى لم أكن أسمع بل أسقى من رحيق الجنان. وكأنه لم يكن غناء مصوغًا من شجى القلوب بل من شعاع العقول..

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته فى ليلة كانت كلها سحرًا. وردنى بعدها بغير ذى أذن إلى كل نغمة من سواه.. وغير ذى صور إلا إلى فتنة من هوى فنه وشجاه.. ولولا أن يعد ذلك جحودًا ولؤمًا لتجاوزت عن ذكر اسمه فإنه أحلى

عندى وأوقع فى نفسى أن أجرد غناءه من صورته الآدمية على حسها النرجسى.. وأن أتصوره أبدًا هوى سابحًا، وروحًا هائمًا، وصوتًا صافيًا..

هذا بعض ما كتبه المازنى عن عبد الوهاب.

وقد فرح شوقى بما نظمه العقاد فى عبد الوهاب. وما كتبه المازنى عن عبد الوهاب.. واعتبر ذلك نصرًا شخصيًا له فقد كان حبه لعبد الوهاب عنيفًا جارفًا.

وكان عبد الوهاب عاطفة فى قلبه، وفكرة فى رأسه، ونورًا فى عينيه..

ولكن بعض أصدقاء شوقى أفهموه أن كتابة المازنى والعقاد عن عبد الوهاب ستجعله ينضم إليهما، وأفهموه أن بلبله الصغير قد بنى له عشًا فى قلب المازنى وقلب العقاد، واقتنع شوقى بذلك، وإذا به يسلط بعض الصحف على العقاد والمازنى لتجامعهما فى موضوع عبد الوهاب بالذات.. فكتب المرحوم حسين شفيق المصرى مقالا نقد فيه قصيدة العقاد وقال: هل أراد العقاد أن يمدح عبد الوهاب أو أراد أن يذمه؟ إنه يقول:

قد سمعناك ليلة فعلمنا كيف يهوى المعذبون السهادا

إذن لم تكن ليلة طرب بل كانت ليلة شقاء. إن عبدالوهاب لم يشج الشاعر، ولكن أشقاه، وسامه سوء العذاب!

وكيف يتفق هذا الشقاء والعذاب مع وصف الشاعر للمغنى بأنه أطرب السمع والحجا والفؤاد؟

وكتبت جريدة الكشكول كلمة تحت عنوان «هجاء فى مدح» قالت فيها:

- سأل أعرابى أحد المغنين ما الغناء؟ فأراد المغنى أن يرى الأعرابى كيف يكون الغناء فأخذ يتغنى بأبيات من الشعر، ويهتز، ويلق برأسه إلى الوراء. ثم يعتدل، ويتجعد وجهه، وتلعب عيناه. فقال له الأعرابى: «والله يا أخى ما يفعل بنفسه هكذا عاقل»!

وقد صدق. ولم نر من استملح هذه البشاعة من المغنين غير المازنى. فقد كتب فصلا عن المغنى النابغة محمد أفندى عبد الوهاب قال فيه إنه إذا تناول العود وأصلحه واستعد للضرب عليه يرفع رأسه حتى يكاد يمس به ظهر الكرسى. ويرسل طرفه إلى الفضاء.. وتلك أوصاف مفتراة ظنها المازنى

مما يحمد من المغنين فوصف بها عبد الوهاب.. وعبد الوهاب براء منها!

ثم قالت: «ولا نرى المازنى أخزاه الله يصف مغنيًا ولكنه وصف قردًا، وخيل إليه أنه يملح وهو يهجو. ولا شأن لنا به.

فلينظر عبد الوهاب كيف جزاء من يطرب الحمق والجهال فلا يكافئونه إلا بإلحاقه بالقرود».

ولما ظهر الكشكول وفيه هذه الكلمة. أخذ شوقى يبدى إعجابه بالكاتب متسائلا: ياترى من يكون؟ إنه ليس أديبًا فقط. ولكنه أديب. وموسيقى ويفهم فى علم النفس. وكان يقول هذه الكلمات على مسمع من عبد الوهاب..

كان كاتب هذه الكلمة هو شوقى نفسه.. وقد نشرها غفلا من الإمضاء!

وقد نجح شوقى فى إقصاء عبد الوهاب عن العقاد والمازنى. وظل المازنى حانقًا على عبد الوهاب إلى قبيل وفاته بسنتين.

أما العقاد فقد نشر قصيدته عن عبد الوهاب فى البلاغ.

ولما تغير رأيه فى عبد الوهاب رفض تسجيل القصيدة فى أى ديوان من دواوين شعره!

شوقى وخصومه

فى عام ١٩٣٢، رحل شوقى من ضفة الحياة إلى الضفة الأخرى. ضفة الغيب والمجهول. وقد كان شوقى شديد الفزع من هذه الرحلة. يتمنى لو عرف ما وراءها كما لو كان شيئًا ماديًّا يراه بعينه، ويلمسه بيده!

فهو يسأل إسماعيل صبرى عن الموت:

قل لى - بسابقة الوداد - أقاتل هو حين ينزل بالفتى أم شافى

ويقول فى رثائه لسعد زغلول:

«عرف الضفة إلا ما تلاها»!

وقد بلغ من فزع شوقى من الموت أنه كان يطمئن إلى الضجة ويجفل من الهدوء. يحب الشوارع الصاخبة، والأنوار الصاخبة، والأصوات الصاخبة. وكان حريصًا على إحاطة اسمه بالضجة والصخب. ضجة المدح، وصخب الثناء. وكان برغم

إيمانه بنفسه، وإدراكه لقيمته الفنية، يتألم من النقد، ويخاف من النقاد. ولقد هاجمه كثيرون من الأدباء والنقاد والكتاب والساسة هجومًا عنيفًا، فلم يرد عليهم بكلمة صريحة. واكتفى بغمزهم تلميحًا فى القصائد التى يقولها فى مناسبات لا تمت إلى موضوع نقده بصلة من الصلات..

وعندما أصدر الأستاذان العقاد والمازنى كتاب الديوان، وهجيا فيه على شوقى هجومًا قويًا جارحًا، انبرى بعض الكتاب للرد عليهما. وكان رحمه الله يغذى هؤلاء الكتاب بآرائه وأفكاره، وكان حريصًا على ألا يظهر معهم فى مكان عام حتى لا يقال إنهم دافعوا عنه بإيعاز منه. وحدث فى ذلك الوقت أن وصلت إلى مصر أم المحسنين والدة الخديو السابق عباس الثانى ومعها رفات ابن عباس. وكان قد مات فى سويسرا. ودفن هناك. وبعد مرور بضع سنوات على موته سمح بنقل رفاته إلى مصر. وكان الملك فؤاد قد أوعز إلى حاشيته أن تعلن غضبه السامى.. على كل من يشترك فى استقبال أم المحسنين، أو تشييع جنازة حفيدها.

واستقبلها شوقى بقصيدة قال فيها:

أقبلى كالشمس لم تجعل لها موكبًا أو تتخذ من حاشرين

أقبلى فى بحرك الطامى إذا عبث السيف بموج المحتفين

وكان ينظم القصيدة وهو يرمق خصومه بعين تتميز غيظًا فقال :

لا ترومى غير شعرى موكبًا إن شعرى درجات الخالدين
آب من قيمتك الدهر كما رجع النقد من الشعر الرصين

وحدث أن تألفت لجنة للاحتفال بذكرى الكاتب الصحفى الوطنى أمين الرافعى، وأقيمت الحفلة فى مسرح الأوبرا. وكان أعضاء اللجنة مختصمين مع شوقى. فوضعوا قصيدته فى نهاية البرنامج، ولما وصلوا إليها اعتذر رئيس اللجنة عن عدم إلقائها، نظرًا إلى أن الوقت المحدد للاحتفال قد انتهى، فنشر شوقى قصيدته فى الصحف وأضاف إليها هذين البيتين :

إن يفت أمس منبر القول شعرى إن لى المنبر الذى لن يزولا
جل عن منشد سوى الدهر يلقيه على الغابرين جيلا فجيلا

ولما مات حافظ إبراهيم. حزن شوقى وتوقع أن أجله قد دنا. فقد حدث عندما مات الإمام الشيخ محمد عبده، أن وقف على قبره سبعة من الشعراء وتنبأ أحد الأدباء بأن من وقفوا على القبر سيموتون بحسب ترتيب إلقائهم لقصائدهم . .

وكان شوقى قد أرسل ثلاثة أبيات لتلقى على القبر. فكانت آخر أبيات أنشدت، وكان حافظ آخر من مات منهم. فلما سمع شوقى بوفاته جزع. أحس أن منيته قد دنت. وسافر إلى الإسكندرية. وتبارى الكتاب والشعراء فى رثاء حافظ. ولم يسمع أحد شيئًا عن مرثية شوقى. فحمل عليه بعض الكتاب واتهموه بالغدر وقلة الوفاء. وقالوا إنه يحسد حافظا حيًا وميتًا. بعضهم كتب هذا الكلام. وبعضهم ردده فى مجالسه، وقد رد شوقى عليهم فى رثائه لحافظ فقال:

وددت لو أنى فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائى

من كل هدام ويبنى مجده بكرائم الأنقاض والأشلاء

ما حطموك وإنما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء

انظر فأنت كأمس شأنك شامخ فى الشرق واسمك أرفع الأسماء

ولقد مات شوقى فى نفس العام الذى مات فيه حافظ، وصحت نبوءة الأديب، وفقد الشعراء بحسب ترتيب إلقاء قصائدهم على قبر الإمام، وكان أولهم حفنى ناصف وآخرهم شوقى..

ياصديق العمر.. تمهل

إلى أين ياصديق عمرى، قف «تمهل» لا تسرع بخطاك إلى العالم الآخر. فأنا مازلت هنا، فى الدنيا التى عشناها معًا طفلين صغيرين، نسكن فى حارة واحدة، ولا نكاد نفترق إلا لحظات النوم، وأوقات الدراسة..

ودارت بنا الأيام، وافترقنا. سار فى طريق، وسرت فى طريق آخر، وكنا دائمًا على اتصال روحى وفكرى. كانت أفكارنا تتعارض أحيانًا، ولكن مشاعرنا ظلت كما هى. بريئة كالطفولة التى جمعتنا، حكيمة كالكهولة التى خطفه منها الموت، وتركنى وحدى أبكيه، دون جدوى!

فلن يعود يوسف حلمى إلى الحياة بعدما فارقها، ولو ذبحنا قلوبنا أسى عليه.

ولكن كم من يوم طواه الزمن وظل عالقًا بأذهاننا، نابضًا فى ذاكراتنا، لأن عظمته تتحدى الزمن والنسيان.

إن الأحياء كالأيام. إذا مضى يوم فلن يعود وإذا مات إنسان فلن نجده إلا إذا وصلنا نحن إليه..

وكم من أصدقاء فقدناهم، ومازلنا نعيش معهم بالذكرى والحسرة. ويوسف حلمى واحد من هؤلاء لا بالنسبة لى كصديق عرفته منذ سبعة وأربعين عامًا، ولكن بالنسبة إلى كثير ممن عرفوا يوسف صديقًا، ومناضلا وعبقريًا.

فيوسف حلمى المحامى الذى نعته الصحف، كان كاتبًا يعالج الموضوعات السياسية والفنية، وكان قصاصا أضاف إلى المكتبة العربية مجموعة من القصص الصغيرة أصدرها من نحو ثلاثين عامًا، وكان أول خريجى معهد التمثيل، وقد رأس جمعية أنصار السلام، وكان ينادى بالمبادئ الاشتراكية قبل قيام الثورة ولم تشغله المهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها، عن الاهتمام بفن الغناء، فعمل على إنشاء جمعية أصدقاء سيد درويش، فقد كان مؤمنًا بأن هذا الفنان هو أول من استمد إلهامه من الشعب، من طبقاته الكادحة من فئاته المظلومة، من أحداثه الكبرى، من نيله وريفه، وتراثه الحضارى، وأنه الرجل الذى نقل الأغنية من التخت إلى المسرح، ولم يجعلها احتكارًا لحناجر المطربين بل جعل الشعب كله يسمع ويغنى، كانت الأغانى فردية، فصارت جماعية.

وكان فى جميع تصرفاته، يعمل بإيمان وقدرة، وكم اختلفت معه فى رأى أو فكرة، ولكن منطقه فى تسويغ آرائه وافكاره، كان يقنعنى دائمًا بأن يوسف حلمى يقول كل ما يعتقده، ويعتقد كل ما يقوله.

* * *

وزاملت يوسف حلمى ونحن فى مرحلة الانتقال إلى الصبا، فى ممارسة هواياتنا الفنية، فألفنا جمعية للأدب والتمثيل وكان بين أعضاء هذه الجمعية أحمد حسين المحامى، ومحمود المليجى الممثل ومحمد نزيه الصحفى، وكان للجمعية أصدقاء كثيرون ممن يقيمون خارج القاهرة ومن بينهم الوزير السابق فتحى رضوان.

وكان يوسف يتميز بالجدية والصلابة والرقة أيضًا، لم يكن يتساهل فيما يؤمن بأنه حق، ويدافع عن إيمانه بالكلمة الصريحة، والابتسامة الحلوة ويستعمل عضلاته عند الاقتضاء، فقد كان قوى البنية شجاعًا، يفيض صحة وشبابًا وحيوية.

وظل كذلك إلى بضع سنوات مضت ثم داهمه المرض الخطير الذى عجز العلم عن أن يجد له دواء إلا الموت،

فحوله إلى شبح، ناحل، أصفر، وظل يقاوم المرض بإرادته، وتشبثه بالحياة، إلى أن مات بلا رئتين، فقد أكلهما السرطان..

* * *

وكنت أعمل مع يوسف حلمى فى جريدة روز اليوسف اليومية، وفى هذه الجريدة تجلت موهبة يوسف الصحفية.. فكان القراء يقبلون على قراءة تعليقاته القصيرة تحت عنوان «همسة» بشغف شديد، وقد شارك فى تبويب الجريدة، وإخراجها، وأعطاها كل طاقته ومواهبه، وتعد هذه الجريدة إحدى الدعامات الكبرى فى تفوق صحافتنا مادة، وأسلوبًا، وإخراجًا.

* * *

وكان يوسف حلمى المحامى، نموذجًا للمثالية فى المحاماة، فهو لا يقبل الترافع فى قضية إلا إذا اقتنع بها، وكم رفض قضايا عرض عليه أصحابها أتعابًا مغرية لأنه بعدما درسها تبين له أنه وهو يترافع عنها، لا يدافع عن حق ولكن يدافع عن ظلم.

زرته فى مكتبه ومعى صديق عرض عليه قضية ليترافع فيها، وأخذ القضية وأراد الصديق أن يحرجه ويدفع له مقدم الأتعاب، فرفض، وقال ستتفق على الأتعاب إذا اقتنعت بالمرافعة فى القضية.

وبعد يومين قال لى صديق إن يوسف حلمى رفض الترافع فى القضية، كان يوسف فى تلك الأيام يعانى أزمة مالية، ولكن أزمته لم تستطع أن تهزم ما قيد به نفسه من مبادئ.

* * *

وقد تزوج يوسف، ولكنه لم ينجب أولادًا، وكان يقدس حياته الزوجية، وكانت زوجته ترى فيه فتى أحلامها، وحبها، وأملها، وقد شاركته فى جميع أزماته وما أكثرها!

وذات أيام كان يوسف يزور بعض أصدقائه فى الريف، وأصيب بنوبة قلبية، وأتى به أصدقاؤه إلى بيته فى القاهرة محمولا على أيديهم، ولم تكد زوجته تراه على هذه الصورة، حتى أصابها إغماء لم تفق منه.. فقد ماتت!

وتحمل يوسف الصدمة بلوعة ولم يتزعزع إيمانه بالله، وظل

إلى آخر لحظة من حياته يبكى شريكة الحياة التى ماتت هلعًا عليه.

* * *

ومنذ سنتين تحول الشاب القوى إلى حطام، فقد عانى من مرض السرطان، وهو لا يدرى، وكان أطباؤه يشفقون من مصارحته بمرضه القاتل، ولكنه عرف الحقيقة، وحاول أن يهزم المرض واستفحل الداء وانتقل من رئة إلى رئة ورغب فى السفر إلى الخارج لعله يجد هناك علاجًا ينقذ به حياته التى وقفها لخدمة وطنه وإنسانيته.

ووفرت له الدولة وسائل السفر والعلاج، وقال لأطبائه هل هناك أمل فى شفائى؟ وهزوا رؤوسهم، فأصر على أن يعود إلى بلاده التى استمد منها الأمل، ليدفن فيها أمله!

وعاد إلى مصر جثة يهمدها المرض وتحركها الكبرياء، وعندما قرأت نبأ نعيه فى الصحف، لم أستطع أن أذهب لأشيع جنازته، فقد كنت مشغولا بتشييع جنازة أخرى هى جنازتى!

ياصديق عمرى إلى أين؟ تمهل.. فمازال فى أفكارك

ومشاعرك ما تحتاج إليه الحياة.

ولكنها حكمة الله إذا لم تستطع رؤوسنا أن تفهمهـا، فـإن رؤوسنا لا تعجز عن الانحناء خشـوعًا لهـا.. فلنحـن جميعـا رؤوسنا ونخشع!

فى الفن.. تقليد!

يبدو أن الحديث عن الشعر التقليدى، والشـعر الجـديد، لا يريد أن ينتهى، فما زلنا نجد كثيرًا مـن الـذين يهتمـون بالحركة الفكرية يصرون على إسباغ مـيزة التجـديد على بعض من ينظمون الكلمة بشكل خاص، وإطلاق صفة التقليـد على من ينظمون الكلمة بشكل آخر والشعر فن..

وليس فى الفن تقليد، فـالفن جـديد دائمًـا، وقـد تعيش لوحة أو قصيدة، أو معـزوفة مـوسيقية مـرت عليهـا آلاف الأعوام، فى حين مـاتت الأعمال الـتى حـاول أصـحابها أن يبتكروا لها قوالب، وخطوطًا. ومناهج حـديثة.. ولماذا؟ هـل الفن ينفر من الجديد؟ كلا ولـكن الـذى يحـدث هـو أن الداعين إلى تجديد الأساليب ليسوا فنانين، وإنما هـم علماء فى

الفن. ويغريهم علمهم بأن يتولوا التجربة الجديدة بأنفسهم. فيخفقوا، تخفق التجربة معهم. فالفن ليس علمًا. ولكنه موهبة يمتد منها العلم. وكل المحاولات الناجحة فى مختلف الفنون، فرضت وجودها لأن وراءها فنانًا. أما غير الناجحة فهى المحاولات التى قام بها علماء تعوزهم الموهبة الفنية الأصيلة.

والعملة الفنية إما أن تكون سهلة فنتداولها، أو صعبة فنشق فى الحصول عليها. أما إذا كانت عملة لا يتداولها أحد بسهولة، أو صعوبة، فهى ليست فنًّا.. وإن ارتفعت مئات الأصوات مؤكدة أنها عملة جديدة. فمقياس صحة العملة أن نشترى بها شيئًا.. فما الذى نشتريه بالفن الصادق؟.. إننا نشترى الانفعال، ورعشة المشاعر، وإغراق الذهن فى التأملات. فكل ما لا يثير انفعالنا.. وتأملاتنا، ويهزنا من أعماقنا، ليس بفن. قد يكون علمًا، مذهبًا فلسفيًّا، معادلة رياضية.. ولا عيب أن يكون كذلك، وإنما العيب أن يصر صاحب النظرية العلمية على أن يسمى نظريته قصيدة، أو تمثالا، أو لحنًا موسيقيًّا.

إن الفن فعل، وصوت، ولابد لكى نوقن بالفعل من أن

يكون له واقع.. ولا بد لكى نوقن بالصوت من أن يكون له صدى.

والأشكال والأساليب الفنية لا يمكن أن تخضع للقواعد والمناهج، وإنما هى تنبع من ذات الفنان، فتعبر عن شخصيته.

والعمل الفنى لا يعيش إذا لم تكن له شخصية تميزه عن الأعمال الفنية الأخرى وإن تقارب معها فى اللون والنسق.

ولا ينبغى أن نقف فى وجه المحاولات للتجديد فى الأشكال الفنية جميعًا. وعندما يوجد الفنان الذى يرسم هذه الأشكال فإنه سيفرض وجوده بأعماله الفنية، وليس بالمذكرات التفسيرية التى يشرح بها هذه الأعمال!

الكاريكاتير... علمنى!

عرفت الكاريكاتير وأنا طفل صغير. عرفته فى مجلة اللطائف المصورة، وكانت على ما أظن المجلة المصرية الوحيدة التى تنشر الصور والرسوم الرمزية فى ذلك الحين. وكانت تنشر

لكاهات أيضًا . . وقد استطعت أن أفهم الصور ولكنى لم استطع أن أفهم الرسوم ولا أن أضحك من الفكاهات !

فهذه الرسوم، أو الصور الكاريكاتيرية كانت شيئًا بعيدًا جدًّا عن فن الكاريكاتير. كانت أشبه بالوشم الذى يحفره الغجر فى جباه الفلاحين وأذرعهم ليجلب لهم الحظ وطول العمر . . وهو يرمز إلى صور للحمام والعصافير والسمك . . . وقد رأيت إجراءات الوشم بعينى . . كانت الغجرية ترسم الحمامة مثلا بالفحم فوق الصدغ أو الذراع ثم تضع فى النار مسمارًا وبعد أن يصبح المسمار قطعة من النار تغرزه فى خطوط الحمامة التى رسمتها بالفحم ، وتحفر الخطوط بالمسمار، ثم تغطى الحفر بسائل أخضر، أو أزرق أو سائل فى لون الكوبيا !

كان كاريكاتير مجلة اللطائف المصورة مشوهًا مثل هذا الوشم ، وكلما رأيته أحسست أن مسمار الغجرية المحمى فى النار ينغرس فى صدغى وذراعى !

وكانت المجلة تنشر صورها الكاريكاتيرية داخل إطار، وتضع فى الإطار كلمات تشير إلى محتويات الصورة بالتفصيل، فتكتب فى رسم الطربوش كلمة « طربوش » ! وفى رسم الطرطور كلمة « طرطور » . . .

وتحت الإطار عبارات تشرح ما فى الصورة من فن... ونكتة... ولا فن فى الصورة، ولا نكتة بطبيعة الحال.. وتستهل الشرح بكلمة اعتذار للشخص موضوع الكاريكاتير... وتؤكد أنها لا تقصد برسمه أن تهينه، أو تحقره، أو تثير حوله الغبار.. وإنما هى مجرد دعابة بريئة!

كاريكاتور علمنى!

وذات يوم وقع فى يدى، لأول مرة، نسخة من مجلة الكشكول، وكان فيها صورة كاريكاتيرية على عرض صفحتين كاملتين، وكانت الصورة تمثل سعد زغلول زعيم الأمة ورئيس الوزارة وحوله الوزراء فى هيئة «زفة».. وقد ارتدى نسيم باشا السروال الإسكندرانى وأخذ يرقص البلدى هو والوزراء جميعًا يتقدمهم سعد زغلول... وفى يد كل منهم آلة من آلات الموسيقى... فهذا يحمل الرق، وهذا يحمل النقرزان، وهذا يحمل العود، وهذا يرفع بفمه دكة فى الهواء، وهذا يضع على صدره القانون أو البيانو... وهذا يتمنطق بطبلة كبيرة، وهذا ينفخ فى مزماره... وهى صورة ناطقة معبرة تكاد تسمع فيها،

رنين الآلات، وصوت المزمار، ودق الطبول!

وكان الزعماء والحكام فى نظر الناس آلهة مرهوبة.. كنا نتصورهم فى قمم لا تصل إليها أنفاس العباد. إلا بالهتاف والدعاء والتسبيح.. ولا تصغى إليها آذان البشر إلا لتتلق الأوامر والنواهى.

وكانت صورهم تبعث الخشية والفزع.. وكانت مواكبهم تثير الخوف والتوقير..

وقد علمنى هذا الكاريكاتير أن الزعماء والحكام ناس عاديون يجوز عليهم ما يجوز على سائر الناس من نقد، وتهكم وسخرية، وأنهم لا يثيرون الحب والكراهية ليس إلا وإنما هم أيضا يثيرون الابتسام والضحك والقهقهة!

وبرغم أنى كنت أحب سعد زغلول وأتحمس له فقد أعجبت بالكاريكاتير الذى نال من هيبته، وشعرت بأنه فتح منافذ عقلى وجعل لى إدراكًا ووعيًا..

وقد عرفت فيما بعد أن هذا الكاريكاتير بريشة «سانتيس» وهو فنان إسبانى اسمه «جان سانتيس» أقام فى مصر فترة طويلة.. واتفق مع جريدة الكشكول على أن يخصها وحدها

برسومه. وكانت الكشكول لسان حال المعارضين لسعد زغلول.

وتمنيت أن أرى «سانتيس» ولكن هذه الأمنية لم تتحقق، فقد مات سانتيس من أعوام قليلة مضت، دون أن أراه.

البقال الرومى

ومنذ مدة ذهبت إلى مجلة «روز اليوسف» لزيارة الأستاذ التابعى، وكنت أحمل له رسالة من شخص تربطه بى وبه صلة القرابة، ووجدت عنده بقالا روميًّا.. وكان البقال يجلس أمام التابعى، وقد وضع كلتا يديه فوق زجاج المكتب، وكنا فى أول الشهر فظننته جاء ليأخذ حساب الشهر أو يطالب بحساب الشهر.. وعندما رآنى رمقنى بنظرة ساخرة وتراجع بكرسيه إلى الوراء، وأطبق شفتيه على ابتسامة أو كلمة لا أدرى!

ولما انتهت مقابلتى للتابعى، زحف البقال بكرسيه إلى المكتب استعدادًا لمراجعة الحساب مع التابعى!

ودارت الأيام، واشتغلت فى مجلة روز اليوسف. وكنت

أرى هذا البقال داخلا من غرفة، وخارجًا من غرفة، وفى خطواته نشاط وضجيج. وكان دائمًا عارى الساعدين متجهم الوجه، رأسه أصلع ليس فيه شعر وملامحه أيضًا صلعاء.. ليس فيها نبض ولا تعبير. عيناه مفتوحتان، وفمه مغلق، وأذنه مرهفة.. إذا ضحك قهقه ثم زم شفتيه بسرعة كأنما تذكر شيئًا يمنعه من أن يضحك!

والتقيت بهذا البقال بعد ذلك فى «آخر ساعة» ثم فى دار «أخبار اليوم»! وتعاملت معه أنا وسائر القراء.. كنا نأخذ منه أجمل أصناف الضحك والسخرية والتهكم... نأخذ منه هذا الكاريكاتير النابض بالحركة.. حتى ليخيل إليك أن الصور تقفز وتثب. وتطير فى الهواء! هذا الذى حسبته بقالا عندما رأيته أول مرة.. لم يكن إلا الفنان «صاروخان»!

وقد جاء مصر من سنوات طويلة. ولم يتركها يومًا واحدًا. وعثر عليه التابعى، ودفع به إلى طريق الكاريكاتير لمشى فيه بخطوات عملاق. وقد ظل طيلة هذه السنوات يقدم صور ساستنا وحكامنا. ويختار لهم الملامح والقسمات التى تعبر عن فكرة الكاريكاتير، إن ريشة صاروخان لم تضع ملامح

ساستنا وحدهم بل وضعت كثيرًا من ملامح السياسة المصرية نفسها زهاء ثلاثين عامًا!

وقد حاول صاروخان طيلة هذه السنوات أن يظفر بالجنسية المصرية، فكانت العقبات توضع فى طريقه.. ولم يجرؤ أحد على منحه الجنسية المصرية.. فقد كان متهمًا بأنه عدو السراى، وعدو الإنجليز، وعدو الوفد، وعدو خصوم الوفد... ثم اتهم بأنه ضالع مع الشيوعيين!

وأخيرًا، وفى عهد الثورة استطاع صاروخان أو الكسندر صاروخان الشاب الأرمنى أن يظفر بالجنسية المصرية. بعدما أصبح شيخًا فى الستين من عمره!

ابن البلد...

وفى عام ١٩٣٣ كنا جماعة من الشبان نكره صدقى (باشا) ونتحمس للوفد بكل ما فينا من تعصب واندفاع. وكان صدقى (باشا) رئيسًا للوزارة وقد استعمل فى حكمه كل أساليب الضغط والتنكيل وصب غضبه على الصحافة فكان يغلق عشرات الصحف بجرة قلم. ويسوق أصحابها ومحرريها إلى

السجون بتهمة العيب فى الذات الملكية.. وكان مجرد توجيه هذه التهمة إلى شخص كفيلا بسجنه على الأقل رهن التحقيق !

وأصدر أحد الشبان الوفديين مجلة تنطق بلسان الشباب الوفدى. وكانت المجلة تحاول تقليد روز اليوسف فى أسلوبها الساخر.. وكان ينقصها أن تقلد صاروخان !

وفى أحد الأيام جاء صاحب امتياز المجلة إلى النادى السعدى وهو يتهلل فرحًا ومعه بضعة رسومات، وعرضها على الموجودين، فأعجبوا بها وأجمعوا على أنها مثل صور صاروخان... وقال صاحب الامتياز إن هذه الصور لشاب يقلد صاروخان أحسن تقليد... وعرفنا أن اسمه المختصر « رخا » واسمه الكامل محمد عبد المنعم رخا. وقال إن رخا شخص موهوب لم يضع وقته فى تكملة الدراسة، واشتغل بالرسم الكاريكاتيرى وظهرت صور رخا. وأعجب بها القراء. وكان هدف رخا محاكاة صاروخان فهو ينقل الملامح كما يرسمها صاروخان، ويترسم حركة يده فى الرسم والتعبير.

ورسم رخا صورة لصدقى باشا، وكتب فيها بحروف دقيقة

عبارات تناولت الملك فؤاد وثار الملك فؤاد، وقدم رخا إلى المحاكمة ودخل السجن، وأمضى فيه أربع سنوات.. وكنا مشفقين عليه من أن ينسيه السجن موهبته في الرسم...

وخرج رخا من السجن... وإذا به ينسى فعلا موهبته في تقليد صاروخان! وإذا السجن الذى أنساه تقليد غيره يذكره بنفسه فيهديه إلى موهبته الأصلية الكامنة فيه، موهبة الفنان الخالق المبتكر... وخرج إلى الشارع فلق ابن البلد... وبنت البلد.. وعاش فيهما، وعاشا فيه.. فصور بنت البلد بالبرقع والملاية اللف، والجمال الذى يريد أن يقول نعم، ولا يستطيع أن يقول غير «لا»! وصور ابن البلد بجلبابه البسيط النظيف كثائه الفطرى، وكفاحه، ونبضات قلبه، وخلجات نفسه.. بل استطاع أن يصور نبرة صوته... هذا الصوت المبحوح من طول ما صاح. وشكا، وهتف!

لقد سجن رخا في يوم ٦ يونية من عام ١٩٣٢. وهو يوم ميلاده في الحياة. كما تثبته شهادة الميلاد... وكان أيضًا يوم ميلاده، كفنان... فمنذ هذا اليوم صارت لرخا شخصيته الفنية الطاغية...

أثر الكاريكاتير فى تفكير الساسة

وكان ساستنا عندما ظهر الكاريكاتير يخافون أن يمسهم... كانوا يفزعون من رؤية صورهم وقد تناولتها الريشة بالسخرية والاستخفاف. وكان أشد هؤلاء الساسة ضيقا بالكاريكاتير مصطفى النحاس وعلى ماهر.. وكان أكثرهم فهمًا للكاريكاتير وحبًا له أحمد ماهر..

ولم أجرب بعد أثر الكاريكاتير فى نفسى، فالصور التى رسمها لى صاروخان ورخا بعيدة عن شكلى الحقيقى... ربما كانت أجمل... ربما كانت أقبح!

عبد السميع وحده هو الذى استطاع أن يرسمنى... وهو الوحيد الذى لم أتحدث عنه..

دردشة مع طه حسين

قال لى الأستاذ الدكتور طه حسين : إن أعظم ما استرعى انتباهه فى أثناء رحلته إلى لبنان وسوريا هذا النشاط

الذى لا يعرف حدًّا، ولا يقف عند نهاية. وبخاصة فى النواحى الثقافية..

وسألته : أما زلت عند رأيك أن هذا النشاط يوشك أن ينقل زعامة الأدب من القاهرة إلى بيروت أو دمشق؟

فضحك وقال : لقد كان هذا السؤال أول سؤال استقبلنى فى لبنان، وأول سؤال استقبلنى فى سوريا. وقد قلت لكل من سألنى : إننى أردت بما قلته فى مصر عن انتقال راية الأدب إلى اللبنانيين أو السوريين أن أحض المصريين على أن ينشطوا ويجدّوا فى مجال الثقافة والمعرفة. وأنا فى لبنان وفى سوريا أقول للبنانيين والسوريين إنهم إذا لم يستمروا فى نشاطهم وإنتاجهم فإن لواء الأدب لن ينتقل إلى أيديهم وسيظل دائمًا فى أيدى المصريين...

ويمضى الدكتور طه فى حديثه ليقول : إن كل ما أقصد إليه هو التحريض على الإنتاج الأدبى، والنشاط الثقافى، وإشعال نار المنافسة بين جميع البلاد العربية، ولا يعنينا بعد ذلك أن ينتقل اللواء من القاهرة إلى لبنان أو سوريا، وإنما الذى يعنينا أن يظل لواء الأدب والثقافة مرفوعًا ويستوى فى

ذلك أن تحميه أيدى المصريين، أو أيدى اللبنانيين، أو أيدى السوريين.. المهم هو أن يظل اللواء مرفوعًا..

وتطرق الدكتور طه من هذا الحديث إلى التعليق على الكلمة التى كتبها صديقنا ناصر الدين النشاشيبى فى يوميات «الأخبار» وقد وصف فيها طه حسين وهو يحاضر فى لبنان، وأشار إلى ما استقبل به من مظاهر الإعجاب والحفاوة والإجلال، من الناس والأساتذة، ومن المستمعين والخطباء... وقال إن طه حسين لم يجب على هذه الحفاوات كلها بحركة واحدة، ولم يشكر الذين رحبوا به، أو هتفوا له، أو قدموه.. وذكر أن هذا ليس غريبًا.. وعقب النشاشيبى قائلا: «فأنا أعلم أن طه حسين يعتقد فى قرارة نفسه أنه أعظم من أن يرحب به أحد، أو يهتف له أحد، وأشهر من أن يقدم له أحد. إنه يؤمن بأن كل مديح يقال فيه إنما هو أقل من القليل.. وكل ثناء يكال له إنما هو بعض الحقيقة وبعض الواجب»

وقال لى الدكتور طه: إننى أشكر ناصر النشاشيبى على هذه الكلمات الجميلة، ولعل هذا الشكر ينفى عنى اتهامه لى

بأنى لا أشكر المادحين! فالواقع أنى عندما أسمع كلمات الثناء ينتابنى خجل شديد، فلا أعرف بماذا أجيب، ولا أجد خيرًا من السكوت، بل لا أستطيع إلا السكوت. وأحب أن أقول إنى كلما سمعت ثناء خيل إلىّ أنه ليس صحيحًا، أو أنه موجه إلى غيرى، فأنا حتى الآن لم أعمل شيئًا يستحق الثناء والمديح . .

وإنى أومن كل الإيمان بقول الشاعر القديم :

وما أعجبتنى قط دعوى عريضة ولو قام فى تصديقها ألف شاهد

الشاعر الطبيب

حزنت لوفاة الشاعر الطبيب الدكتور أحمد زكى أبوشادى. مات بغتة وهو أشد ما يكون حيوية ونشاطًا. وقد ترك بنتين وولدًا، وعددًا كبيرًا من دواوين الشعر باللغة العربية، ومجموعة من الشعر باللغة الإنجليزية، وبحوثًا كثيرة فى البكتريولوجيا والنحالة.

وقد هاجر أبو شادى إلى أمريكا هو وأسرته فى عام ١٩٤٩ وأقام بها، وأعلن فى ثورة غضب مما لقيه فى مصر،

أنه لن يعود إلى بلاده، ولن يكتب حرفًا باللغة العربية. ولكنه لم يكد يقيم فى أمريكا حتى استأنف نشاطه الأدبى باللغة العربية، فأعد للطبع ديوانين من الشعر هما «الإنسان الجديد» و«النيروز الحر» وكان قد أصدر فى مصر دواوين «أنداء الفجر» و«الشفق الباكى» و«الينبوع» و«فوق العباب» و«أطياف الربيع» و«عودة الراعى» و«من السماء».

ولم يستطع أبو شادى طيلة إقامته فى أمريكا أن يقطع صلته بمصر، لقد عاش فيها بفكره، وقلبه، وكان يحس آلامها ويعبر عنها بقصائد نشرت فى الصحف التى تصدر فى أمريكا باللغة العربية، ونقلتها عنها المجلات الأدبية فى مختلف بلاد العرب، ورددتها محطات الإذاعة.

وقبيل قيام الثورة المصرية، أذاع أبو شادى قصيدة فى إحدى محطات الإذاعة هزأ فيها بفساد الحكم، وسخر من طغيان فاروق.

ولقد كتب أبو شادى عن سبب هجرته لمصر فقال:

إن الرجعيين والنالين بدءوا يعرقلون جهودى، ويسعون

لمطاردتى فى عملى الحكومى، وأخذ الناشرون يرضون الرجعيين بالإعراض عن نشر كتبى.

وقبل أن يهاجر أبو شادى إلى أمريكا توفيت زوجته، وكانت سيدة إنجليزية فضلى شاركته الحياة منذ عام ١٩٢٢، ثم اصطدم بالمسئولين فى جامعة الإسكندرية وكان يعمل أستاذًا فيها.

ولقد كانت حياة أبو شادى العلمية والأدبية صراعًا عنيفًا بينه وبين خصومه العديدين... بعض هؤلاء الخصوم كانوا على خلاف معه فى الرأى فحاربوه بأسلحة شريفة. وبعضهم كانوا حاقدين عليه فاستعملوا ضده أسلحة الدس، والكيد، والغدر، وحاربوه فى رزقه وسمعته. حتى اضطر أن يبيع مطبعته فى السيدة زينب. وكان يقيم فى هذه المطبعة حيث يحرر مجلة أبولو الشهرية، ومجلة «الإمام» الأسبوعية.

وقد أسس جمعية أبولو لخدمة الشعر وأسند رياستها لأحمد شوقى فلما مات شوقى أسند رياستها لخليل مطران. وكان أبوشادى فى الواقع «دينامو» الجمعية. وطاقتها الكبرى. وكان ينظم اجتماعاتها، ويتولى شئون أعضائها وأكثرهم احتلوا مكانة مرموقة

فى الشعر، وأكتفى هنا بذكر أسماء من فارقونا إلى العالم الآخر بعد ما تركوا آثارا فنية باقية وهم : الدكتور ناجى، على محمود طه، ومحمد الهمشرى، وعبدالحميد الديب.

وقد باع أبو شادى كل ما كان يملكه عن أبيه المحامى محمد أبو شادى زميل سعد زغلول فى الدراسة والمحاماة. باع كل ما يملك وأنفقه على الكتب، والدواوين والمجلات الأدبية التى أصدرها، وقد دخل أبو شادى عدة معارك أدبية فى وقت واحد، حاربه أنصار القديم لأنه كان مجددًا. ولم يقف إلى جانبه أنصار الأدب الحديث، فقد كانوا شيعًا مختلفة، وكان يحارب بعضهم بعضًا بسبب انتساب فريق منهم إلى الوفد، وانتساب فريق آخر إلى الحزب الوطنى، وانتساب فريق ثالث إلى حزب الأحرار الدستوريين ! وكانت هذه الفرق كلها - قديمها وجديدها - تناصب أبا شادى العداء، وتحمل عليه حملات شعواء قاسية !

وقد هاجمه أحد الكتاب فقال : إن الأطباء يعدون أبا شادى شاعرًا والشعراء يعدونه طبيبًا !

وكان رحمه الله يضيق بهذا الأسلوب فى الهجوم.

مدارس الأدب

كانت مدارس الأدب في مصر أربعا، مدرسة القدماء ويتزعمها رجال الأزهر ودار العلوم. ومدرسة للمحدثين بزعامة شكري والعقاد والمازني، وقد انقسم ثلاثتهم، فاعتزل عبد الرحمن شكري الحياة العامة واندمج العقاد في مناصرة الوفد. ووقف المازني موقف المناصر للحزب الوطني حينًا والمعادي للوفد في جميع الأحيان!

وهكذا أصبحت هذه المدرسة مدرستين أو ثلاثا!

ومدرسة أخرى للمحدثين بزعامة طه حسين وهيكل وعبد الرازق وعزمي وهؤلاء كانوا يناصرون حزب الأحرار.

ومدرسة زكي أبو شادي وإسماعيل مظهر ومن معهما من شعراء وأدباء كانوا لا يزالون في مستهل حياتهم الأدبية.

وكان لطفي السيد وخليل مطران وشوقي يحاولون جهدهم ألا يدخلوا في هذا العراك. وكانت أفكار لطفي السيد مع طه حسين وشيعته. وكان خليل مطران مع النازعين إلى التجديد. وكان هوى شوقي مع الجميع إلا العقاد والمازني!

حرية القافية

ولقد عرفت زكي أبو شادي في عام ١٩٣٢ ودعاني إلى زيارته في جمعية أبولو بحارة عمر شاه بالسيدة زينب. ونشر لي قصيدة في مجلة أبولو. وقد خالفته في آرائه، وكان يرى أن يتحرر الشعر من قيود القوافي. وكنت أرى أن القافية شيء مقدس. كان فاقهًا. وكنت جاهلا، فقد أصبحت أميل إلى تحطيم قيود القوافي وما هو أكثر من القوافي!

وقد حملت عليه في بعض الصحف الأدبية وداعبته بنظم شعر على طريقته: طريقة القافية الحرة.. وكان يلقاني فيعاتبني بحرارة. وكان يظنني عدوا، والواقع أني ما كرهته، ولا ناصبته العداء ولقد أدركت حقيقة فهمي له، وموقفي منه في عام ١٩٤٤، وتكرر لقائي له، وتبادلنا الزيارة.

ولقد كان أبو شادي صاحب آراء سديدة في الشعر. ولكنه لم يستطع أن يعبر عن هذه الآراء بشعره، فقد كان برغم دعوته إلى التحرر من قيود الشعر: كثيرًا ما ينظم على طريقة القدامى. ويتخذ نفس تعبيراتهم وطريقتهم. كأنما يريد

أن ينفى عن نفسه تهمة العجز عن التقعر فى اللغة..

وكانت موهبته سليمة، ولكنه عرضها للعطب بسبب سرعته فى النظم. فليس أخطر على موهبة الشاعر من السرعة.

ولقد أصابه هذا الخطر. وأصبح ما تركه من دواوين تعد بعشرات الألوف من الصفحات فى حاجة إلى غربلة وتنقية حتى يتميز الشعر الزائف من الشعر الصحيح.

ولقد ظل أبو شادى حتى آخر رمق من حياته يكتب. ويؤلف، ويذيع فى صوت أمريكا. وتكلم فى إذاعته هذه عن كتاب الشعر العربى فى المهجر الذى ألفه الأستاذ محمد عبد الغنى حسن، وعتب على المؤلف أنه لم يخص الشاعر المصرى - أى أبو شادى - إلا بصفحتين اثنتين فى حين أفسح الصفحات الطوال لشعراء لا يستحقون مجرد ذكر أسمائهم!

واتهم الشاعر إليا أبو ماضى بأنه اقتبس قصيدته «لست أدرى» من شاعر إنجليزى.

إن أبو شادى العالم الأديب الشاعر سيظل شيئًا كثيرًا. وسيبقى طويلا فى تاريخنا الأدبى.



ساعات معها.. وأيام معه!

اتصلت بى فى التليفون ولو لم تبادر وتذكر اسمها لما تصورت أنها سيدة.. ففى صوتها نبرة شاب، وبحة صبى!

قالت إنها تحمل لى رسالة من صديق يقيم فى دمشق، وسألتنى كيف نتقابل لتسلمنى الرسالة؟ وكنت قد سمعت عنها الكثير مما يغرى بلقائها، فلم أتردد فى أن أضع يومى كله تحت أمرها.. والتقينا!

لم تكن بعيدة كل البعد عن صورتها التى ارتسمت لها فى ذهنى قبل أن أراها.. فى الخامسة والعشرين، ذكية جذابة، البديهة حاضرة والعينان فى غيبوبة.. لسان فصيح، وقوام أكثر فصاحة، وملامح مهذبة، وفكر سليط!

كانت فى حديثها تدور حول نفسها.. تتكلم عن أهلها وأصدقائها، وزوجها، وبنتها الوحيدة، وشعرها الذى نظمته باللغة الفرنسية، وقصتها الجديدة التى كتبتها باللغة العربية.. وهى تنطق الكلمات نطقًا صحيحًا، وتردد الأغانى الخفيفة، وتروى شعرًا جميلا لنزار قبانى، والمتنبى!

وأهدت لى قصتها الجديدة (أيام معه) وقلت لها إنى سأقرأ القصة بشغف، فإن بطلها صديق.. ورفعت يدها فى وجهى احتجاجًا، وقالت : لا تظن أنى أعنى فى قصتى فلانًا.

فقلت لها : أنا لا أظن.. أنا أعتقد!.

وانصرفنا على أن نلتقى مرة أخرى.

وقصة (أيام معه) تقع فى ٤٠٠ صفحة من الحجم المتوسط، وقد طبعت بأناقة، وذوق. وترف.. ووضعت بين دفتى غلاف يثير شهوة القراءة!!

بطلة القصة فتاة تمردت على تقاليد عتيقة.. تسلب المرأة حقها فى حرية التفكير، وحرية العاطفة. فليس للمرأة رأى تعبر عنه، ليس لها أن تحب أحدًا، أو يحبها أحد.. وهذه التقاليد لا تغفر للمرأة أن تعرف رجلا تحبه علنًا.. وتغفر لها أن تزل فى الخفاء.. تطبيقًا للقاعدة المعروفة : (إذا بليتم فاستتروا).

وأحبت الفتاة كهلا، فى حدود الأربعين، وكانت مخطوبة لشاب جميل يحبها.. ولا تحبه.

الكهل موسيق - هكذا تقول القصة -والشاب طالب جامعى.

والفتاة تشبه المؤلفة نفسها.. كوليت سهيل خورى. وهى تصور نفسيتها الثائرة المتمردة، عندما أرادت أن تكمل دراستها.. إن العادات الصارمة تتعقبها. الأسرة تقف فى وجهها بالمرصاد، وهى تسأل: لماذا يرفض أبى أن أتعلم.

كيف.. كيف أقبل أن أعيش حياة تافهة؟

كيف أرضى أن أعيش بين أربعة جدران، أقتل طموحى بالملل، وأدفن آمالى فى انتظار العريس؟

لا.. أنا لم أوجد فقط لأتعلم الطهى، ثم أتزوج فأنجب أطفالا. ثم أموت.

إذا كانت هذه هى القاعدة فى بلدى، فسأشذ أنا عنها.. أنا لا أريد أن أتزوج!

أنا أريد أن أعيش حياتى، لا أن ترسم لى حياتى.. أريد أن أحصل على شهادات عالية، أريد أن أدرس الموسيقى، أن أتعلم الغناء، أن أكتب الشعر، أن أرسم، أن أعمل، أن أشتغل، أن أسافر.. أريد. أريد. أريد.

وكم وكم يريد طموح السابعة عشرة!

وتمضى كوليت فترسم جو الأسرة، وجو المجتمع، وترصد نظرات الاتهام التى ترهقها من الناس، وبخاصة من عمها، فقد كان يعلن للجميع:

أن هذه الفتاة ليست متزنة! لماذا تنشر أشعارها فى المجلات؟ وماذا تفيدها كتابة الشعر؟ إنها فتاة غريبة الأطوار.. منطلقة.. تصرفاتها تخلق لنا مشاكل..

المجرد أننى شابة، وصريحة، وأكتب الشعر، يجب أن أحاكم فى هذا البلد؟

وانطلقت الفتاة كما أرادت، استقلت وحدها فى سكن خاص هى وأختها الصغيرة، عرفت صديقها الفنان الكهل، أحبته، وأحبها.. وكانت تعرف عنه أن قلبه أشبه بالمتحف.. يضم تحفًا من العشيقات.. وأنه لا يحب المرأة.. ولكن يحب فنه فى أية امرأة..

كل امرأة جديدة نغمة يستغلها فى وضع لحن جديد!

وقد أبدعت المؤلفة فى رسم شخصية البطلة، وشخصية البطل، وشخصية المجتمع..

ولكن هل (أيام معه) قصة ؟

وربما كانت عناصر القصة متوافرة فيها، الجو، والشخصية، والتحليل النفسي، والتحليل الفكري.. ولكن الشخصيات ثابتة، والأفكار محددة..

إن قصة (أيام معه) اشبه بالغدير الصافي.. ولا ينبغي أن تكون القصة غديرًا، وإنما يجب أن تكون نهرًا يجري ويتجدد. القصة حياة تنمو وتكبر.. وليست مناظر محدودة، ووقائع مقررة.

ما أشبه كتاب (أيام معه) بمؤلفته.. ليس للمؤلفة كل ملامح المرأة الجميلة.. ولكن فيها كل جاذبية المرأة الجميلة.. وكذلك (أيام معه) ليس فيها كل ملامح القصة، ولكن فيها كل جاذبية القصة!

وأسلوب كوليت خوري مثلها، أحيانًا يخلو من مساحيق الاستعارة والإغراق في التشبيه، وأحيانًا تتراكم عليه المساحيق.. وتغدو بعض فقراته كما لو كانت معطرة!

إن كتاب (أيام معه). ليس قصة، ولكن لوحات فنية، أشبه بالاعترافات. وقد استطاعت كوليت خوري أن تعترف.. بصدق، وحرارة وأنوثة!

الفن والتعايش السلمى

اتجاهات غنائية متناقضة. جديد وقديم. ألحان سريعة متلاحقة، نغمات بطيئة مسترخية، أصوات ترتفع فوق الموسيقى، موسيقى ترتفع فوق الأصوات، نبرة حماسة، ورنة مرح.. رقص شرقى، ولوحات باليه، أذواق متعددة مختلفة!..

كانت هذه هى السمات الفنية لحفلة الجمهورية التى أقامتها فى سينما ريفولى اليوم، وهى الحفلة المخصص إيرادها لطلبة الجامعات.. وساهم فيها كل الفنانين.. وقد لقوا جميعًا، على اختلاف نزعاتهم، وألوانهم، إعجابًا جارفًا من الجمهور..

كانت النغمة الشرقية تعيش فى أذواقنا مع اللحن الأجنبى فى مساواة وحسن جوار.. كانت الرقصة الشرقية تشيع فى نفوسنا نفس المتعة التى أشاعتها لوحات الباليه.. الليالى والمواويل عبرت عن كل المعانى التى عبرت عنها الأناشيد والمقطوعات الغنائية والموسيقى المجردة من الكلمات.. هكذا عاشت أذواق الفنانين، وأذواق الجماهير فى سلام..

إن التعايش السلمى يتحقق بين العائشين المتعددين إذا

كان هدفهم واحدًا.. وقد كان هدف الفنانين - على تباين أذواقهم - أن يقفوا بجوار الطالب الجامعى الذى يريد.. ولا يستطيع!

وقد حققوا الهدف الواحد، بالوسائل المختلفة.. وحققوا فكرة الملاءمة بين الاتجاهات الفنية. أثبتوا قدرتهم على تحقيق التعايش السلمى، والتنافس السلمى!

التشاؤم والتفاؤل

لماذا نتشاءم، ولماذا نتفاءل؟ هناك من يذهب إلى أن التشاؤم والتفاؤل لفظان مختلفان لمعنى واحد، هو الوهم.. فالمتفائل إنسان يرى ضوءًا غير موجود، والمتشائم إنسان يحاول إطفاء ذلك الضوء غير الموجود!

وهذا كلام مريح، ولكنه ليس الحقيقة.. فنحن فى حياتنا نتشاءم من ناس، وأيام، وأرقام، ونتفاءل بناس، وأيام، وأرقام..

وقد حاولت عبثًا أن أتحرر من هذا الوهم، أو هذه الحقيقة، ومازلت إلى اليوم أتشاءم من الرقم الذى يلى رقم

١٢ فى الصعود.. فلا أكتبه، ولا أنطقه، وفى حياتى أشخاص إذا رأيتهم واجهت يومًا ضاحكًا، وأشخاص إذا رأيتهم واجهت يومًا عبوسًا!

ولم يكن بد من أن ألقى صباح اليوم واحدًا من هؤلاء!!

استقبلته فى البيت، واعتزمت أن أعتكف طول النهار حتى لا أتعرض لخطر مجهول.. ولكنى اضطررت إلى الخروج لعيادة صديق مريض لم أعلم بمرضه إلا أمس، وذهبت إلى المستشفى فعلمت أن الصديق غادره من عشرة أيام مضت، فحمدت الله.. وفى المساء تلقيت نعى صديق!

وذهبت إلى دار الفقيد لأؤدى واجب العزاء، فلم أجد أحدًا فى الدار. وسألت الجيران عن المأتم، وقيل لى إن المأتم أقيم فى البلد منذ أسبوع..

وفهمت أن ما ظننته نعيًا للفقيد لم يكن إلا شكرًا من الأسرة للمعزين!

وكانت سيارة أجرة تنتظرنى، فركبتها وطلبت من السائق أن ينطلق بى فى شارع الهرم، فقد كنت فى حاجة إلى هواء طلق. ولما وصلنا إلى نهاية الشارع، أشرت إلى السائق أن

ينتظر أمام أحد المطاعم، وهناك طلبت دجاجة خالية من العظام، وأحضر لى الجرسون عظامًا خالية من الدجاج! ونهضت لأدفع الحساب، فلم أجد حافظة النقود، وخرجت إلى الشارع أبحث عن السيارة فوجدتها، ولكنى لم أجد فيها حافظة النقود!

وسألت السائق: هل يستطيع أن يقرضنى جنيهًا؟.. وأعطانى الجنيه، ودفعت ثمن العشاء، وركبت السيارة عائدًا إلى بيتى.. وقال لى السائق: هل بحثت جيدًا فى جيوبك عن حافظة النقود؟.. ولم أجبه بشىء، فقد كنت واثقًا من أن نقودى ضاعت فى سيارته.. وأنه وجدها، وأخذها!

ولما وقفت السيارة أمام البيت، نزل السائق، من مكانه، وأدخل رأسه فى الجزء الخلفى من السيارة، وأشعل عود كبريت، وفتش تحت الكنبة، فوجد حافظة النقود، فقدمها لى وهو يحمد الله.. شعرت بخجل شديد لأنى أسأت به الظن، وأعطيته حسابه، وكافأته على أمانته بثلاثة جنيهات.

هذه المضاعفات كان يمكن أن تقع لى دون أن أرى واحدًا ممن يثيرون تشاؤمى.. ولكنها لم تقع إلا بعد ما رأيت هذا الواحد فعلا!

إن المنطق يهزأ من المتفائلين والمتشائمين.. ولكن هل نحن نسير فى حياتنا بالمنطق؟

إننا نقف، ونتحرك، ونعيش بهواجس نفسية مبهمة، وقد نستطيع أن نسيطر أحيانًا، على هواجسنا، ولكن الهواجس تعود وتسيطر علينا فى أكثر الأحيان!

فهرس

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٣٤٧٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠١-١٣٤٦-٨	ISBN

١ / ٨٦ / ١٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)